٧

المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الثاني عشر بعد المئة

١ فبراير سنة ١٩٤٨ ٢١ ربيع الاول سنة ١٣٦٧

التكافل الاشتراكى

نظرية مّا في النظام الاجتماعي

البحث الاول فى تحليل النظرية

٣ – استبداد الجماعة بالفرد وغلاة الاشتراكيين (١)

استبداد الجماعة بالفرد، استجابة تكاد تكون طبيعية لما ورث النظام الاجتماعي من تسلط الفرد على الجمعية تسلطاً لا نبالغ إذا قلنا إنه تجاوز الحد اللازم للاحتفاظ بوحدة التكافل الجماعي. ومن أجل أنه تجاوز ذلك الحد، ذهب الاشتراكيون إلى أن عكس الآية هو غاية الاصلاح وأنه السبيل القويم لبناء المستقبل، فراحوا يستذلون الكفايات والمواهب الفردية لصالح المجتمع. مثلهم في ذلك كمثل من وقع على فرع فاسد في شجرة، فخيل إليه أن العلاج إنما هو أن يضع الفأس في جذورها.

كان من الطبيعي أن يحدث هذا الانتكاس، بل أعتقد إنه خطوة لازمة من خطى التطور لخلق جمعية جديدة على قواعد جديدة. فان العنت الذي عانته الجماعات من استبداد الفرد، سواء أظهر في صورة حاكم أو رجل دين أو سياسي أو رسمالي أو منتج أو مستهلك، قد

---

(١) نشر البحثان السابقان فى عدد ديسمبر سنة ١٩٤٧ وفي عدد يناير سنة ١٩٤٨

بلغ في النظام الذي خرجت به الجماعات من عصر الاقطاع مبلغاً أحدث وكساً شديداً في وعي الجماعات ، جعل تقبـلها لنظام عكـسيّ له، مماشياً لفكرة أن الضد يمحو الضد ، ناسية أن ذلك إن صح في ظواهر بسيطة ، كأن يمحو النهار آية الليل مثلاً ، فإنه أبعـد ما يكون صحة وثباتاً في نظام الجمعيات الانسانية ، وهو نظام دقيق كل الدقة ، معقد كل التعقيد ، مترابط بوشائج وأواصر قلما يدركها الباحثون في خصائصه .

أضف الى ذلك أن قاعدة توالي الأضداد ليست من طبيعة الاجتماع في شيء أصلاً ، بل هي ليست من طبيعة الحيـاة في شيء . فقيام نظام أساسه تسود الجمعية على الفرد ، ليحل محل نظام تسوّد فيه الفرد على الجمعية ، هو استبدال شيء بضدّه ، ولقد يظهر ذلك جليًّا في أنه عبارة عن استبدال صورة من الاستبداد بأخرى ، فكأنما طبيعة النظام ذاته لم تتغيّر وأن الذي تغيّر فيها هو الصورة لا غير .

إلاّ أنه من خليقة الأشياء ، أن تنزع الى حالات متضادة اذا اكتنفتها ظروف غير طبيعية . نقول مثلاً إن الضغط يولـّد الانفجار . وما كان الانفجار ليحدث لولا زيادة الضغط . ذلك بأن الضغط الى حد الاحتمال ممكن أن لا يحدث انفجاراً ، ولـكنه اذا تجاوز حد الاحتمال ذهب الى الضد تماماً . وإذن فقيـام النظامات الاشتراكية أو الشيوعية التي كان السبب فيهـا ازدياد ضغط الفردية الى حدٍّ غير محتمل ، هو حالة طبيعية ، السبب في حدوثها أن قوات غاشمة عاقت خطى التطور عن الانبعاث .

على أن حدوث هـذا الحال إن كان طبيعيًّا ، فان بقاءها غير طبيعيّ . فإن الفرد إن استبدت به الجمعية لا تنشأ كفاياته ولا تنمو مواهبه ، شأن الجمعية إذا استبد بها الفرد ، تتوانى دورة التطور فيها وتفقد كثيراً من مقوّمات التكافل التي يجعلها جمعية صلبة القوام مهيأة للتقدم والارتقاء . فالطور الذي تجتازه الإستبداديات الجماعية هو طور تناثرت فيه بالانفجار شظايا نظام قديم ، فاذا تجمعت تلك الشظايا ثانية ، لأنها عناصر أصلية ، لا بد لها من أن تتجمع ، ظهر مع تجمعها ضرورات تعيد الألفة . ونقصد بالألفة صورة تكافلية بين الفرد والمجتمع تذهب بكل صورة من صور الاستبداد من الناحيتين، ناحية الفرد وناحية الجمعية.

من الحقائق الجليـة على أن الاستبداديات الجماعية هي عبارة عن انتقال من شيء الى

ضده . ان الحكومة في النظام الفردي قد حددت سلطتها بالقدر الضروري لحفظ النظام وحماية القانون ، وفي النظام الجماعي امتدت سلطتها حتى أصبحت كل شيء ، فتدخلت في شئون الفرد تدخلاً كاد يذهب بكل كفاياته التي لا تنمو وتتنشأ إلاّ في جو من الحرية تكفله له الجمعية . وهي فوق ذلك صبّت الجمعية في قالب من العسير عليها أن يكون بيئة موائمة لمقتضيات التطور . فمن حماية لحرية الفرد الى الدرجة الى أذلت الجمعية له ، الى تدخل وتقييد لتلك الحرية أذلت الفرد للجمعية .

أكثرنا من الكلام في الفرد وتنمية كفايته في ظل نظام حر خالص من استبداد حكومة فردية أو استبدادية جماعية ، فينبغي لنا الآن أن نصف الصورة التي يكون عليها الفرد قادراً على تنمية كفاياته .

الجمعية كلٌّ ، الأفراد أجزاؤها . على أنه من الخطأ أن نتصور أن هذه الأجزاء أو الوحدات هي كالأجزاء أو الوحدات المادية في هيكل جامد موات . بل يجب علينا أن نعي دائماً أن الوحدات العضوية في كلٍّ جماعي ، هي وحدات حية أخص ميزاتها الفكر والارادة . وللفكر والارادة بيئة خاصة تنتعشان فيها وتتناميان ، بمعنى أن نمو الفكر يتبعه نمو الارادة ، ونمو الارادة يتبعه نمو الفكر ، وهذا لا يحدث الاّ في بيئة حرة من جميع القيود الثانوية التي تحد من الفكر وتعرقل من الارادة .

الفكر والارادة أداتان متكاملتان . فالفكر بلا إرادة تعطل . والارادة بلا فكر عمياء . فكل نظام يسلب الفرد حرية الفكر والارادة ، نظام ينقصه المقوّم الفردي ، وهو أقوى المقوّمات الاجتماعية . ذلك بأنه العامل الحقيقي الذي يهيء للوحدات الاجتماعية ، التي هي الأفراد ، سبيل التكون بحيث تصبح شاعرة بأنها قوة مستقلة تفرض على بيئتها المؤثرات وتتقبل من البيئة مؤثراتها ، فيحدث ذلك التجاوب بين الفرد والجمعية الذي هو في الواقع الأساس الذي يقوم عليه التكافل الاشتراكي .

اذا عزّ على الفرد أن يكون حرّاً ، وعزّ عليه أن يكون مريداً ، فَقَدَ تلك القوة التي يكون بها ذا أثر في البيئة وتعذّر عليه أن يتقبل آثار البيئة ويمثلها تمثيلاً تصبح به جزءاً من كيانه . وبذلك تنحل رابطة التكافل بين الفرد والمجتمع ، كما تنحل تماماً اذا فرض على

الجماعة أن تقوم على نظام مصطنع ليس وليداً للتطور ، بل هو وليد نظريات وضعها مصلحون أو مريدو اصلاح ، مهما كان فيها من عمق الفكر وسلامة المنطق ، قد تكون مع ذلك بعيدة كل البعد عن مسايرة الاتجاه التطوري الذي سارت فيه الجماعة منذ أزمان موغلة في القدم . وهو اتجاه فيه من أثر الوراثة أكثر مما فيه من أثر التربية .

***

على هذا قام صراع بين الفرديين الذين يقولون بحرية الفرد وتسلطه على الجمعية ، وبين الاشتراكيين الذين يقولون باخضاع الفرد للجمعية . فما طبيعة ذلك الصراع ؟

طبيعته في الواقع قائمة على تصور أن الانتقال من التطرفية الفردية الى التطرفية الجماعية ، هو طريق القضاء على الوراثات الخبيثة التي خرجت بها الأمم الحديثة من نظام القطائع . أما الصور التي تشكل فيها ذلك الصراع فشتيتة متنوعة ، ولكنها تعود جميعاً الى نظرية المساواة بين الأفراد .

علت الصيحة بنظرية المساواة في أزمان كثيرة ، ولكنها كانت في الثورة الفرنسية من الأصول التي اتخذت سبيلاً الى القضاء على سلطة الاستبداد وسلطة النبلاء . ثم اتخذت من بعد ذلك أساساً لنظرية تساوي الأفراد في النظام الاجتماعي ، فقيل بأن الناس ما داموا متساوين فالملكية لصوصية ، ومن أجل أن يحدث التساوي يجب أن يعاد ما سرق اللصوص الى ملكية عامة ينتفع بها الجميع . وتدرّج القول من ذلك الى القول بتأميم المرافق العامة ، لأن الأرض اذا عادت الى ملك الدولة لتصبح ملكاً عامّاً ، فأولى ببقية المرافق أن تكون كذلك . فاتسع بذلك نطاق الحكومة وزاد تدخلها في حرية الفرد وفي تنظيم الجماعة .

غير ان الطبيعة لم تسوّ بين الأفراد اطلاقاً . لم يحدث ذلك في ناحية من نواحي الحياة ، لا في عالم النبات ولا في عالم الحيوان ولا في عالم الانسان ، وأخص ناحية اتضحت فيها الفروق هي الناحية العقلية ، بل هي الناحية التي تعذر فيها حدوث المساواة بين فردين اثنين من أبناء آدم وحواء .

وبالرغم من أن التاريخ الانساني برمته لسان ناطق بما كان لأفراد ممتازين فيه من أثر تنشئة الحضارات ، أنكر القائلون بالمساواة حقيقة الفردية ، وقالوا بأنه مهما يكن من أمر

في التاريخ، فان من الواجب أن يضحى بها في سبيل الجماعة، وان الفرد زائل والجماعة باقية، وفسروا التاريخ تفسيراً اقتصاديًّا مستخلصين من ذلك التاريخ ان أعظم الكوارث التي نزلت بالبشر، انما نزلت من أثر هذه الفردية وتسودها على المجتمع.

ومهما يكن من أمر ذلك فان تفسير التاريخ اقتصاديًّا كتفسيره جنسيًّا أو روحيًّا أو غير ذلك، لن يظهر لنا من التاريخ غير ناحية بعينها من نواحيه. ذلك بأن التاريخ مجموعة من أثر الظواهر والنزعات الانسانية، ففيه أثر من الاقتصاد، وإثارات من العاطفة الجنسية، ودلائل من الروحانيات، الى غير ذلك. فتفسير التاريخ اقتصاديًّا صحيح ولا شبهة. غير انه تفسير لناحية واحدة من نواحيه. فاتخاذ هذا التفسير قاعدة للحكم على أشياء الاجتماع، طريق خاطىء. ولا شك، بقدر ما في ذلك التفسير من انكار لبقية المؤثرات التي كوّنت التاريخ البشريّ. وعلى هذا يجري القول بأن أثر الفرد في التاريخ كان عائقاً اجتماعيًّا سبَّب وقوف الجماعات وصدّها عن التقدم والارتقاء.

جملة القول انني لا أنكر ان الفردية عاقت خطى التطور عن الانبعاث في سبيلها أحقاباً. وكذلك لا أنكر ان الفردية حفظت على الانسانية الى جانب ذلك أرقى مثلها وقامت حفيظة على كنوز العلم والحكمة تنقلها من الأسلاف الى الأخلاف. وذلك يثبت لدينا أن الحد من سلطان الفرد على الجماعة ضروريّ. ولكن أشد منه ضرورة أن يعطى الفرد من الحرية القدْر الذي يكفي لتنمية كفاياته ومواهبه، ويُمكّنهُ من تأدية الرّسالة التي حملها خلال القرون.

من أجل ان الوراثة الاجتماعية قد مضت خلال قرون بمقتضى مؤثرات معينة في سبيل استقوى به الفرد على الجمعية، واستغلّ ضعفها بنزعاته الانانيّة، قام في أذهان بعض الذين أرخوا الانسان اقتصاديًّا، ان تلك الظاهرة هي التي خلقت جميع مشاكل المجتمع منذ ان كان للانسان مجتمع. لذلك أرادوا ان يطيحوا بالفرد وان يسوّدوا عليه الجمعية، اعتقاداً بأن ذلك هو العلاج الوحيد للمرض الكامن في الجماعات. ونسوا مع ذلك أمرين لهما من الأثر ما هو أسوأ من أثر الفرد بنزعاته الانانية:

الاول: ان التضحية بالفرد تضحية بالقوة المبتكرة في الحياة.

الثاني : ان استذلال الفرد معناه استذلال الجمعية . لأن معنى أن الحكومة توجه الجمعية، يتضمن مع حد الحرية الفردية ، تقييد النزعات الاجتماعية وصرفها عن سبيلها الطبيعي في النماء والتطور .

فكأن أولئك الذين حاولوا ان يسعدوا المجتمع بتقييد القوى الفردية ، قد اضطروا الى تقييد الجمعية أيضاً . ولولا ذلك لبرزت الكفايات الفردية ثانية من خلال ذلك المجتمع الاصطناعي ، وأخذت مكانتها في الوجود ، ولو أُتيحت لها الفرصة لرجعت الى صورة ما من صور استبدادها القديم .

* * *

حُوول ذلك في روسيا السوفيتية . وبعد ثلاثة عقود من الزمان قام فيها نظام التسلط الجماعي ، لحظ أن هذه الجمهورية ترتد شيئاً بعد شيء الى نظامات لا هي ديمقراطية فردية صرفة ، ولا هي تكافلية صرفة :

ان التجربة الروسية تجربة فذّة في ثلاثة نواحٍ من النظام الاجتماعي : سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا . غير أن الفرد الروسي المستعبد للجمعية لم يبلغ بعد منزلة الفرد في كثير من الممالك غير الشيوعية كأمريكا والنرويج والسويد ودنمركة . والاجتماع الروسي الذي استعبد الفرد لم يبلغ بعد مبلغ الجمعيات في ممالك أخرى .

وإن الدلائل لتدل بوضوح على أن ضغط الظروف سوف يظهر عما قريب في أية وجهة سوف يتجه ذلك النظام . غير أني لا أشك شيئاً ، في أنه سوف يتجه في طريق يحقق التكافل بين الفرد والجماعة، وإلاّ فلا شك في أن ذلك النظام سوف لا يقوم بغير دكتاتورية استبدادية هي عنوان حيّ على أن الألفة بين شقي المجتمع تكاد تكون فاقدة ، وان ما يظهر هنالك من أوجه التكافل الاشتراكي ما هو الاّ صورة مصطنعة من فعل قوة مطلقة في الحكم، وانه لن يكون له من أثر قبل أن يتحقق للفرد قدر من الحرية يكفله المجتمع ، حتى يمكن أن يزوّد الكائن الاجتماعي بالقوة المحركة التي تضمن تطوره نحو الغايات والمثل العالية .

اسماعيل مظهر

لكل أجل كتاب

لا أستطيع أن أدّعي العلم بتفسير هذه الآية الكريمة علماً لا ينازعني فيه الكثيرون من أهل الفضل. ولا أستطيع أن أجاري الذين يأخذون هذه الآية على ظاهرها، فيقولون بأن معناها منصب على الأعمار والآجال باعتبار ما تلاها من الآيات، ثم يختمون اجتهادهم بالوقوف عند هذا المعنى وحده. بل أذهب الى أن لهذه الآية أكثر من معنى، فكما أنها تنصب على الأعمار والآجال، كذلك هي تشير إشارة خاصة الى معنى من معاني التطور الاجتماعي، وتلمح الى أن النظامات المدنية انما تتغير بتغير الزمان، وتتفاوت بتفاوت العلم والعقلية، وتتفاضل بتسامي الناحية التي ينظر منها الناس الى حقائق الحياة وحقائق الوجود، وانه بمقتضى ذلك تتغير النظامات وتتبدّل الأوضاع الاجتماعية والفكرية، وأنه بمقتضى ذلك تتكيف النظم وتتعدل الشرائع من حيث حاجات البشر الى التطور، ومن حيث أن البشر عجينة لينة في يد المقدرات الطبيعية والغيبية، فيكون لكل زمان من الأزمنة، ولكل عصر من العصور، لوناً من الشرائع وضرباً من النظام يختلف عن اللون الذي يلابس الشرائع والنظم في غيره من الأعصر، وبذلك تماشي الشرائع حاجات الناس ويماشي الناس روح الشرائع، حتى لا يقف دولاب الرقي الانساني عن دورته الطبيعية المقدورة، ولا تتخلف الشرائع عن مسايرة الحاجات التي تتطلبها الحياة الاجتماعية، فيكون لكل زمان لباس خاص من الشرائع، وصورة بعينها من النظام، ولون بذاته من الفكر، ويكون إذن «لكل أجل كتاب».

أجملت هذه الآية معنى التطور الانساني برمته في ثلاث كلمات. فان تاريخ الانسان يدل دلالة قاطعة ان له عصراً عمت فيها الجهالات وأسفت فيه الأخلاق وامّحت فيه كل المعاني القدسية التي تنزل الآن من مدنيتنا، ومن كل المدنيات الرشيدة، المنزلة الأولى في تقدير العقل والمشاعر. كان الانسان في ذلك العصر حيواناً يأكل إذا جاع ويجوع إذا لم يجد، ويفترس

إذا اشتدت به نداءات الاحتفاظ بالذات، ويموت مأكولاً إذا ما عجز عن الدفاع عن نفسه، يتخذ من الأشجار بيوتاً ومن المغاور والكهوف سكناً. فضيلته أن يسد حاجات الطبع المادي، فسمت رذائله وتخافتت فضائله، وكانت هذه الشريعة في الواقع شريعة ذلك الزمن وقانون ذلك العصر: قانون القوة والفوضى، قانون «كن آكلاً قبل أن تكون مأكولاً».

عاش الانسان في ذلك العصر فرداً همه من الحياة أن يرد عنها عادية الموت والفناء، وان يسد حاجات الجسد وحدها، فعاش عيش البهائم السائمة، وكان قانونه في ذلك الحين، قانون كل سائمة من الحيوان.

تكوَّنت بعد ذلك الأسرة، ومن الأسر تكونت القبيلة، ومن القبائل تكونت الأمم والشعوب. وفي هذا السطر وحده طوينا من عمر الدنيا الآلاف المؤلفة من السنين، وقطعنا عشرات المئات من القرون، لنجد الانسان من بعد ذلك حجر الأديان الأولى يدرج نحو الروح بعد أن قضت عوامل التطور على الزمن وعلى النظام الذي درج فيه الانسان في حجر المادة. وإذن فقد تدلنا حقائق هذه الحياة البشرية دلالة صادقة على أن الانسان لم يجمد في عصر من عصوره ولا استحجر مستعصياً على سنن التطور الأبدية أن يتبدل من سائمة إنساناً، وأن يخرج من صلب المادية بشراً سويًّا. سويّ النظام، سويّ الخلق، سويّ الروح، كأنما شاء طبعه أن يكون من التطور والى التطور، وان الحياة تطور صرف نشهده في تقلب المخلوق الآدمي منذ أن يكون نطفة فعلقة فمضغة فعظاماً تكسى لحماً، ثم طفلاً ثم يافعاً ثم شيخاً، ثم فيلسوفاً من طراز سقراط أو نبيًّا يهدي الناس الصراط المستقيم. ومثل الفرد في تدرجه من النطفة الى النبي، كمثل الجمعية البشرية في تدرجها من إنسان كأنه سائمة الى انسان الحضارة الجديدة، إذ تحتاج في كل طور تجتازه الى شريعة والى كتاب، فشريعة المضغة ليس هي شريعة الطفل، وشريعة الطفل ليست هي شريعة اليَفَع، وشريعة الفتى غير شريعة الكهل، وشريعة الأبله ليس هي بذاتها شريعة الفيلسوف، ولا شريعة الفيلسوف هي بذاتها شريعة النبيّ. وإذن يكون لكل حال شريعة، وإذن يكون لكل أجل كتاب.

ماذا نقصد بتفسير هذه الآية هذا التفسير، وما هو الحق الثابت الذي يدور من حوله

المعنى المدرك من أن لكل زمان شريعة ؟ نقصد أن جوهر الحق ثابت ، وكذلك يكون لكل شريعة جوهر ثابت ، لأن معنى الشريعة أن يكون في الضمير الانساني نزعة الى معرفة الحق ونبع يفيض دائماً بمعنى الحق . وأول حق للإنسان في هذه الدنيا هو حق الحياة . ولكن على أي وجه من وجوه الحياة تتكيف الصورة التي تلابس هذا الحق ؟ الواقع أن هذه الصورة تختلف باختلاف الأزمان والأحوال ومراتب الرقي أو الاصقاع التي تكون عليها جماعة من الجماعات . فالحق باعتباره مفهوماً ينطوي عليه خير الانسان ، كذلك الشريعة لها مفهوم كلّي ثابت . ولكن الصورة التي تتكيف بها هي التي تجري عليها سنن التطور ، وهي التي تجري عليها ملابسات الحاجات الناشئة بتغير الظروف والأوضاع . واذن يكون لكل زمان شريعة . وإذن يكون لكل أجل كتاب .

***

في هذا كثير من الحق . فان الزمن الذي كنا نعدّ فيه لأعدائنا من رباط الخيل ، زمن قد مضى أهله ومضت ملابساته . وجاء الزمن الذي نعدّ لهم فيه المدفع والبارجة والدبابة والقنبلة الذرية . الشريعة الثابتة وجوهر الطبع الذي لا يتغيَّر هو أن يعدّ الانسان لنفسه آلة الدفاع من عدوّه . ولكن اذا دارت عجلة الزمان وأصبح رباط الخيل عدة الهزيمة في التناحر على البقاء ، وجب ، وان كل جوهر شريعة الدفاع عن نفسه واحداً لا يتغير ، أن تتغير وسائله بمقتضى التطور الذي أصاب العلم والفكر ، وبمقتضى الصورة التي استطاع الانسان بعقله أن يجعلها تلابس المادة التي هي أداته في هذه الحياة . كنا نتخذ فيما مضى السيوف والحراب والسهام آلة للدفاع عن النفس مطاوعة لموحيات شريعة البقاء التي هي ثابتة . ولكن هذه الصورة التي لابست عدَّة هذه الشريعة قد تكيفت الآن ، فهل نكون صبَّاقين إلى الحياة وإلى إدراك الحقائق وإلى الفهم الصحيح ، إذا ربطنا بين الشريعة وأداتها ، وقلنا إن الصورة التي صلحت عدة لشريعةٍ مّا ، قد تصلح لجميع الأزمان ولجميع الظروف وعند جميع الناس وفي مختلف بقاع الأرض ؟ اذا ثبتنا على ذلك فانما نكون متخلفين عن زماننا ، جانحين إلى الجمود الذي لا مسايرة فيه لمقتضيات الحياة المادية والعقلية .

مثلك في ذلك مثل انسان نشأ في خط الاستواء ثم أراد أن يزور قطب الشمال ، فذهب

اليه في أطماره التي لا تستر من جسمه شيئاً ، نازعاً الى الاعتقاد بأن شريعة الاستواء هي شريعة القطب وأن الحياة هنا هي الحياة هناك، وان ما ورث عن الآباء صالح لكل بيئة ولكل زمان ! وما جئنا بذلك إلاّ لنقول إن بين شرائع القوامر المادية وشرائع القوامر العقلية والروحية ، شبهاً وأي شبه . فان صورة ما من صور الفكر أو الخلق أو الوضع الاجتماعي قد تصبح في زمن وفي بيئة وفي جماعة من الناس ، وبينها وبين الحاجات الضرورية للحياة بوناً شاسعاً وصدعاً متنائياً ، كذلك الصدع الذي يفرق في الطبيعة بين خط الاستواء برمضائه ، وقطب الشمال بزمهريره الذي يشوي الوجوه .

نضرب لذلك أمثالاً من شريعتنا الاسلامية . فالبرّ بالفقير والمسكين وابن السّبيل من الأشياء التي تدخل في شريعة الاسلام مدخل الأمر القاطع . ولذلك شرعت الديانة الاسلامية مبدأ الزكاة ، وجعلت له حدوداً محدّدة بما قام في زمان من حاجات الفقير وقدرة المزكي . ولكن حاجات الفقير تضاعفت وزادت ، وقدرة من تجب عليهم الزكاة تضاعفت أضعافاً . وأصبح ما كان يجري مجرى المثل الخيالي من القول بأن هنالك قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، حقيقة واقعة في هذا الزمن . وكان الفقراء والمساكين كما كانوا في جميع العصور وفي العصر الحاضر كثرة بالغة الى جانب قلة يأكلون الأموال بالباطل . فهل نستطيع أن نقول ان مبدأ التزكية عن المال وعن النفس وإن ظل قائماً بجوهره ، يجب أن يتعلق جوهره بأعراضه التي أصبحت في هذا الزمن كأنها الهباء الى جانب حاجات هذا المجتمع ، والى جانب الثروات التي استجمعت في أيدٍ زادها الغنى نهمة الى المال وزادتها القوة والسلطان جشعاً في سبيل الدنيا ؟

نرجع بعد ذلك الى الجهاد في سبيل الله أو في سبيل الذات . كانت عدة الجهاد فيما مضى سيف ودابة لمن استطاع أن يكون له دابة . فما عدتنا اليوم ؟ عدتنا الفيالق المجهزة بأدق الآلات الثمينة والبوارج التي تمخر البحر كالأعلام والطائرات التي تكفي نفقات واحدة منهنّ لتجهيز جيش برمته في الأزمان السالفة . فهل يكفينا اليوم لتجهيز جندي محارب ما كان يكفي جندياً في جيش بن الوليد أو أسامه بن زيد . وهل يكفينا من الخراج ما كان يكفي حكومة اسلامية في الصدر الاول من الاسلام ، وهل نستطيع أن نقول أننا أعددنا عدة

الجهاد ونسبة ما نجبي اليوم من أصحاب الملايين هي نسبة ما كان يجبيه عمر بن الخطاب ، إلاّ ونكون الى اللهو أدنى ، والى انكار واقع الأمر من الحياة أقرب شيء؟ أما والأمر على ما رأيت ، فإن لكل زمان شريعة ولكل أجل كتاب .

* * *

في هذا كثير من الحق . وإذن نخلص منه الى سؤال : ما هي الغلالة التي تأتزر بها شريعتنا التي نعتقد أن جوهرها هو الحق الذي ثبت في قلوبنا باعتبارنا بشراً ، وتشرّبته عقولنا وأفكارنا باعتبار أننا أهل عقيدة مزاجها ثابت ثبوت الرواسي ، وإيمان روحه من الحق والى الحق . الغلالة أو الصورة التي ينبغي أن تلابس شريعتنا السمحة بمقتضى تطورنا الذي قطعنا فيه شوطاً مداه خمسة عشر قرناً من عمر هذه الدنيا ، إنما تستمد من نسيج يلائم المحيط الذي اكتنفنا في العصر الذي نعيش فيه . محيط شعرنا فيه بأن الظلم واقع ونحن لا ندفعه ، وأن الفقر كائن ونحن لا نقتله ، وأن المرض فتّاك ونحن لا نقاومه ، وأن الجهل فاش ونحن لا نساجله ، وأن الأخلاق دنية ونحن لا نقوّمها ، وأن المطامع فاضحة ونحن لا نكبتها ، وأن الضلالة قائمة ، والحقيقة نائمة ، وأن العدل ضياع ، والظلم قناع ، وأن الصراحة قتل ، وان سبيل المجد كيد وختل . إن عدتنا في ذلك أن نقول ، ونقول بحق « لكل أجل كتاب »

لقد مضى ولله الحمد من ذلك الزمن الذي كان أسلافنا في عصور انحدارهم يرون فيه الظلم لزاماً ، والفقر لجاماً ، وأن المرض بليـة ، والجهل عَطية ، وأن دنايا الخلق سبيل الرشد ، وأن الطمع طريق الجاه ، وأن الضلالة إذا لم تصبك فحسبك أنها عنك بمنأى وأنت منها بمنجى ، وأن العدل اذا ضاع فما عليك ضياعه إذا لم تفجع في مال ولا ولد ، وما عليك أن تسكت عن الحق فلا تصارح به ولو أصبحت في دين الله شيطاناً أخرس ، وفي ذمة الرجولة خنثى ، فلا أنت بذكر ولا أنت بأنثى .

الغُلالة التي توائم روح عصرنا ومحيطنا ، وتتفق ومدرج الحياة الذي درجنا فيه هي الغلالة التي تردنا مسلمين أحراراً في أفكارنا وقلوبنا ، وأن نتخذ من الإيمان الثابت قوة ندفع بها الظلم ونحطّمه ، ونقتل بها الفقر وندفنه ، ونقضي على الجهل ، ونروي بقوانا

كلها على المرض : مرض الأجسام ومرض النفوس ومرض العقول ، وأن نصارح أنفسنا ونصارح الناس بالواقع ، ونعمل على أن لا نكون شياطين خرساً نعرف الحق ونسكت عن الحق . وفينا اليوم من القوة ومن البأس ومن الرجولة والفتوة والايمان ، ما لو أردنا أن نزحزح به الجبال لزحزحناها أو نخرق به الأرض لخرقناها ، ونفذنا من أقطارها الى الحق والى العدل والى الغنى والجاه ، ليكون من نصيب الناس أجمعين ، لا من نصيب من قست قلوبهم فأصبحت كالحجارة أو أشد قسوة ، واتضعت نفوسهم فأصبحت كحثالة الشيء ضررها واقع ونفعها بعيد ، أولئك الذين هم يعلمون أن جاههم سبيله العدوان وما لهم طريقه الظلم الصارخ ، وان دعتهم مسلوبة من شقاء غيرهم ، من غير أن يؤدوا حتى أمانة القول بأن هناك ظلماً يجب أن يدفع وأن هنالك ملايين من البشر خوت بطونهم وتعرت أجسامهم وفرغت عقولهم وفسدت نفوسهم وارتجت أرواحهم في صدورهم .

***

لكل أجل كتاب ، ولكل زمان شريعة . ذلك ما يمليه طبع الحياة وطبع الأشياء ، وذلك ما يثبته تاريخ الانسانية الطويل في كل مراتب التحول التي مضى فيها الانسان خلال جميع الأزمان . فما هو إذن طبيعة الطور الانقلابي الذي نقف على عتبته ونكاد ندلف من بابه عزلاً من كل سلاح اللهمَّ الاَّ ايماننا بأننا مقدمين على عصر ستكثر فيه الأحداث وتتوالى فيه التغيرات ، وسوف تكتنفنا فيه كثير من قوات الشر وتتساورنا فيه أبالسة من أهل الجمود ، فئة منهم من أهلنا ، وفئة من عدونا ؟

نخطىء كثيراً إذا نحن مضينا نعتقد أن الأساليب التي جرينا عليها في تاريخنا القريب تصلح هي بذاتها لزماننا هذا ، ويتضاعف خطؤنا وتزداد المخاطر التي تحف بجمعيتنا إذا نحن أدركنا الخطأ ولم نعترف به ولم نعمل على حربه الحرب العوان ، لأن الخطر الأكبر ليس في أنك ترى الخطر ، ولكن في أنك لا تدرك مقدار الخطر الذي يلم بك ، وليس الضعف في أن تكون ضعيفاً وحسب ، بل الضعف الأكبر هو شعورك بالضعف ، كما أن القوة هي في الواقع شعورك بأنك قوي .

وكذلك نخطىء إذا لم نقدر التقدير الكافي ألوان المخاطر التي تمتد في جميع مرافق حياتنا داخلية وخارجية ، ونخطىء إذا نحن اعتقدنا أن الحياة سبيل واحدة ووتيرة واحدة ، وأن

أحداثها لن تنال منا في المستقبل أضعاف أضعاف ما نالت منا في الماضي . فالواجب أن نفتح أعيننا على حقائق الحياة وان نعلم، أول ما نعلم، أن ما بنينا من مجد في جهادنا القريب قد يمحى ويزول بقليل من الضعف يتغلغل في قلوبنا وقليل من التدابر يدب في صفوفنا، وقليل من المطامع تأكل صدورنا، وقليل من التهاون يطيح بحريتنا واستقلالنا وبجميع ما رأبنا من الصدوع التي خلفناها من ورائنا . فالأعين من حولنا مفتحة والأيدي الطامعة تمتد الينا مجهزة بكل عدة وسلاح، والخطر ماثل أمامنا منوله لعيني النابغة إذ يقول :

فانك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
خطاطيف حجن في حبال متينة تمد بها أيد إليّ نوازع

فان تطاحن المبادىء الاجتماعية التي تمليها مطامع ليس لنا فيها ناقة ولا جمل، ولا نحن منها في العير ولا في النفير، تهب على هذه الدنيا لفحاتها المستعرة، وشرورها المستطيرة، لفحات الحرب وشرور التخريب والتدمير، فكيف بنا اذا هبت رياحها ونحن عزل من سلاح المادة وسلاح الفكر، وكيف بنا اذا اهتاجت من حولنا الأعاصير ونحن نجهل من أين مهابها وما هي مراميها وماهي بواعثها، وكيف بنا اذا نحن فهمنا منها كثيراً من أوجه الخطأ وغاب عنا كثير من أوجه الصواب، وكيف بنا اذا هي تسعرت ونحن على ما كنا استكانة وفساداً وفقراً وجهلاً ومرضاً وخسة في الأخلاق وانحلالاً في الأرواح وتطوحاً مع المطامع الفردية والاسفافات النفسية، وشعورنا دائماً بأن الجمعية لا كفالة عندها للفرد، وأن الفرد لا كفالة عنده للجمعية .

ذلك كله يجعلنا نفكر ونفكر طويلاً في اللون الملائم الذي يتطلبه زماننا وظروفه القاسية، لنلبس شريعتنا الجديدة إياه، شريعة القوة والقدرة، وما هي وسائلنا الى القوة وما هي وسائلنا الى القدرة، وما هو الكتاب الذي ينبغي أن نجعله نبراسنا في هذا العصر الشامخ الذي يتطلع أهله كل يوم الى جديد من العلم والى جديد من الخلق والى جديد من الأساليب ؟

ان وسيلة الحياة في هذا العصر أن نكون رجالاً تؤمن بالحق، وأرواحاً ترضى بالتضحية، وسواعد تعمل عند الحاجة كما عملت سواعد أسلافنا عند ما حطموا المظالم وأقروا الحقوق فأفنوا للحياة وهدموا للتعمير .

مشكلة الاسترليني

١ — توطئة

لم تنته مشكلات بريطانيا بانتصارها في الحرب الأخيرة ، بل تفاقمت وعظمت حدتها فما أن وضعت الحرب أوزارها حتى ألفت بريطانيا أحوالها الاقتصافاية تهددها بسوء المصير ، فقد حطمت العمليات الحربيـة كثيراً من أدوات الانتاج ومراكزه وفقدت عدداً من أسواقها الخارجية لاضطراب أحوال أوربا خاصة ، ومن ثم هبط معدل صادراتها بينما ظل معدل وارداتها على حاله تقريباً فليس يسيراً عليها أن تقلل — الى حد خطير — وارداتها من الأطعمة والمواد الأولية وإلا تأثر مستوى معيشة شعبها تأثراً خطيراً وهدد صناعاتها نفسها بالـكساد والبوار .

ولقد كانت بريطانيا قبل نشوب الحرب الأخيرة تغترف من حصيلة استثماراتها الخارجية وأرباح أسطولها التجاري وما تجنيه من سوق لندن المالية من وراء العمليات المالية المختلفة من أرباح ، وما يمكنها من سد الثغرة بين صادراتها ووارداتها أو كما يقال في التعبير الفني موازنة ميزان مدفوعاتها . بيد أنه هبطت حمولة أسطولها التجاري كما استنفدت جانباً عظيماً من استثماراتها الخارجية في أثناء تمويلها لحربها الأخيرة وهذا كان من أهم الأسباب التي حدت بالرئيس روزفلت الى إقرار نظام الاعارة والتأجير بعد أن لمس تصدع النظام المالي البريطاني وعجز الاقتصاد القومي عن تمويل حربهـا مع المحور . ولما انضمت الولايات المتحدة الى صف الحلفاء اتسع نطاق عمليات الاعارة والتأجير ، فضمنت بريطانيا حصولها على احتياجاتها الحربية والمدنية من الولايات المتحدة دون أن تضطر الى دفع أثمانها أو تقييدها ديوناً عليها

ولقد ألجأت بريطانيـا الحاجة الى عقد طائفة من القروض في كندا ودول أميركا الجنوبية والسويد وسويسرا والشراء مؤجلاً منهـا ومن غيرها . وفوق هذا كله استغلالها

العلاقة بينها وبين طائفة من البلاد عرفت بكتلة الاسترليني وتضم الممتلكات المستقلة (عدا كندا فلها وضع خاص) والمستعمرات البريطانية وبعض البلاد الصغيرة الأخرى ، وأخيراً مصر والعراق . ويقضي الانتساب الى الكتلة الاسترلينية — خاصة — ثبات سعر الصرف بين الجنيه الاسترليني وعملات البلاد الاعضاء في الكتلة ، وأن تستند نظمها النقدية على ما يعرف بنظام « الصرف بالاسترليني » ولبابه أن يكون غطاء العملة ، الأوراق المالية التي تصدرها الخزانة البريطانية ، ثم هيمنة بريطانيا على ما يتحصل لأعضاء الكتلة من نقد أجنبي واعادة صرفه الى كل منهم وفقاً لاحتياجاتهم جميعاً . ولقد منح هذا النظام بريطانيا وسيلة فذّة لتمويل مشترياتها من سلع وخدمات من أعضاء الكتلة . وتفسير ذلك أنه بمقتضى أحكام الكتلة الاسترلينية تستطيع بريطانيا الحصول على ما تشاء من عملة عضو من أعضاء الكتلة على أن تُصدر مقابلها ما يوازيها من أذونات الخزانة البريطانية وما في حكمها ، ويعني هذا حصول بريطانيا على قرض اجباري لا تجاوز فائدته فائدة غطاء عملة العضو .

وهكذا تجمعت لبلاد الكتلة الاسترلينية ديون على بريطانيا تنيف على الثلاثة آلاف وخمسمائة مليون جنيه استرليني منها الفا مليون جنيه تستحقها الهند وأربعمائة وأربعين مليوناً تستحقها مصر . وما كانت بريطانيا لتستطيع سداد هذه الأرصدة بضائع أو عملة أجنبية يستخدمها أصحاب الأرصدة في الشراء من البلاد الأخرى ، فاضطرت ان تقيد استخدامها الى أن يحين أوان تسويتها وكانت بريطانيا تسمح الفينة بعد الفينة بفك عقال جزء من أرصدة بعض البلاد بوساطة إعطائها مبالغ من الدولارات أو سداد بعض مشترياتها من الأسواق البريطانية .

وللمشكلة الاسترلينية جانب آخر . فان اقدام الولايات المتحدة على وقف العمل بنظام الاعارة والتأجير وضع بريطانيا في موقف بالغ الحرج . إذ حد من وسيلة دفع مشترياتها من الولايات المتحدة وهذا ما دفعها الى التماس قرض من هذه البلاد تستعين به في رأب ماصدعته الحرب من كيانها الاقتصادي والمالي وفي موازنة ميزان مدفوعاتها فترة حتى يستقيم حال اقتصادها القومي .

٢ – أثر القرض الاميركي في مشكلة الاسترليني

بلغ مقدار القرض الذي منحته الولايات المتحدة ، بريطانيا العظمى بمقتضى الاتفاقية المالية البريطانية الاميركية، وفترة سحب القرض تنتهي في ٣١ ديسمبر سنة ١٩٥١ وبعدها يبدأ استهلاك القرض . ومن الحري بالذكر أن الحكومة الكندية أقرضت بريطانيا في نفس الوقت ١٢٥٠ مليون دولار كندي .

وتفرض اتفاقية القرض على بريطانيا اجراء التعديلات الهامة التالية في سياستها الخاصة بالاشراف على عمليات المبادلة :

أولاً – أن تتخذ في غضون سنة من تاريخ التصديق على القرض ، التدابير الكفيلة بجعل متحصلات الاسترليني لكل الدول المنتمية الى كتلة الاسترليني قابلة للتحويل الى أية عملة أخرى والغاء نظام تجميع الدولارات Dollar Pool في لندن وتوزيعه على أعضاء الكتلة.

ثانياً – الغاء القيود المفروضة على حرية استخدام الأرصدة الاسترلينية المملوكة لأفراد في الولايات المتحدة .

ثالثاً – أن ترفع – في غضون سنة – كل القيود المفروضة على المدفوعات وعلى التحويلات الخاصة بالعمليات التجارية الجارية ، وذلك فيما يتعلق بكافة الدول الأعضاء في كتلة الاسترليني وغير الأعضاء .

ولقد رسمت الاتفاقية الخطوط الأساسية لحل مشكلة الأرصدة الاسترلينية التي تحوزها أعضاء كتلة الاسترليني وهم يمتلكون الجانب الأعظم من الأرصدة . فقضت بفك عقال جانب من الأرصدة المتجمعة فوراً وجعله قابلاً للتحويل الى أية عملة ، والافراج عن جانب آخر منها على دفعات تبدأ من عام ١٩٥١ . أما بقية الأرصدة فيجب الغاؤها لقاء « المنفعة التي تجنيها الدول التي تمتلك الأرصدة ، من هذه التسوية » . ولم تضع الاتفاقية قاعدة عامة لتسوية الأرصدة الاسترلينية ، وتركت أمر ذلك الى مفاوضات تجريها بريطانيا مع دائنيها

وفي المقال التالي نعرض لتطور المشكلة الاسترلينية منذ تقرير مبدأ قابلية الاسترليني للتحويل ،،،

فؤاد محمد شبل

نظرات في النفس والحياة

- ٤ -

من نظرات تشسترفيلد

فيليب دورمر ستانهوب لورد تشسترفيلد من نبلاء الانجليز . وأهم مؤلفاته رسائله الى ابنه وقد ضمنها نصائحه التي اكتسبها من خبرته في مخالطة الناس فقد شغل مناصب مختلفة وعاشر أناساً كثيرين من طبقات مختلفة إذ كان أولاً عضواً في مجلس النواب ثم في مجلس اللوردات ثم سفيراً في هولاندة ثم حاكماً لارلندة ثم وزيراً . ورسائله ذخر مملوء خبرة بالنفوس وكنز من تجارب الحياة . وقد أسرف الدكتور صمويل جونسون الأديب الانجليزي في ذمها ولكنه اعترف في ثنايا ذمه بما فيها من فطنة وخبرة إذ قال لو سُلَّ منها ما لا يجمل التخلق به لصلحت كي يقرأها كل فتى، وأوجه الاختلاف بينهما كثيرة منها ان جونسون كان ينمق الرسائل في الأخلاق النظرية ويحتذي ما درسه في الكتب، وتشسترفيلد كان يسترسل في وصف النفوس كما خبرها بأسلوب سهل موجز حتى عُدَّ آية في بلاغة الايجاز.

ومنها ان جونسون في أيام فقره تطلَّع الى أن يمده النبيل الغني بمعونة تعينه على نشر مُصَنَّفاته، فلم يفعل اللورد أو أنه تباطأ أو أهمله مدة فأرسل اليه الدكتور جونسون رسالته التي كانت كصوت بوق يؤذن بعصر جديد وباعتماد الأدباء على كسبهم بدل الاعتماد على معونة النبلاء . ومؤرخو الأدب يقولون ان إبن تشسترفيلد الذي كتبت له الرسائل لم ينتفع بها انتفاعاً كبيراً ولم يفده ذكاء ولا خبرة . ولا غرابة فالكتب لا تخلق عقلاً ولا تنشىء ذكاء غير موجود وانما تُفَطِّن وتربي ما هو موجود ، والخبرة قلما تفيد إلاَّ إذا عالجها المرء بنفسه . وكثير من الناس يعالجون التجارب ولا ينتفعون بها فكيف بها اذا كانت تلقيناً وقولاً يقوله غيرهم ، وإنما يكون نفع التجارب اذا صادفت النفوس توفيقاً واستعداداً .

وكل ما يقال في ابن تشسترفيلد انه لم يُظهر فضلاً كبيراً ولا نقصاً خطيراً ، وانما كان من غمار الناس . وأمل المؤرخ الذي كان يأمل نبوغه بسبب الرسائل، انما هو نوع من الاعتراف بكياستها وفطنتها

وقد أوردت نتفاً على سبيل الاقتباس منها، والتفكير فيها، لا على سبيل الترجمة الحرفية. وربما أدمجت بعضها في بعض: —

(١) بعض الناس يمدح نفسه بصيغة الذم فيكسو الفضائل لباس النقيصة والعيب ثم ينتقص نفسه بتلك الفضائل ويعيبها بتلك المحامد التي كساها كساء العيب كي يجعل مدح نفسه سائغاً لدى الناس. فيقول مثلاً: من عيوبي التي لا أستطيع ان أغالبها اني أقول الحق في غير موضعه، وآتي بالصدق في غير مكانه... أو يقول: من عيوبي اني ما رأيت إنساناً مُصاباً إلاَّ وددت أن أشاركه في مصابه، كأني أحمل الدنيا أو كأني موكل بها. ولا تزال بي تلك الودادة حتى أقاسمه المصاب وأشاطره وأعينه على ما حل به وأهيئ له من أمره ترفيهاً ورشداً.... أو يقول: من نقائصي المذمومة اني كلما رأيت مظلوماً نصرته، وإن كان في نصره ضررٌ لي. ومن مقابحي التي لا أستطيع الخلاص منها أني كلما رأيت ضعيفاً أعنته على أمره... والعاقل حقيقٌ بالانصراف عن هذه الوسيلة التي توهمه إنها تحمل الناس على اغتفارهم له مدح نفسه، إذ هي لا تحملهم على الاغتفار بل تزيد الناس سخرية به وإزراءً عليه — ومن الناس من يتخذ لنفسه شعاراً في أمر من الأمور ويوهم الناس أنه وحده كفيل به لا شريك له ويردده في كل فرصة حتى يمل الناس أمره ولا تنفعه طلاقته ولا أنه ذرب اللسان ذلقه، وللناس افتنان في هذه الأساليب المتغايرة. وفي الحالتين المذكورتين، المدح المراد للنفس، مدح لم يقصده صاحبه إلاّ بطريقة ملتوية ولكنها حيلة مكشوفة.

(٢) اذا أكثر رجل من القسم ولجَّ في الحلف كي يحملك على أن تصدقه وكي يقنعك بحلفه في أمر لا يستدعي تصديقه كل هذا الحلف فهو في أكثر الأحايين كاذب فيما يقول وإلاّ ما تكلَّف جهد الحلف كي يخفي به كذبه، وكي يداوي شكه في تصديقك كلامه، وكي يعالج خوفه من رفضك قوله — وهذا يذكرني قصة رجل من أهل المدينة كان يقول للناس: أنا والله من قُرَيْش والحمد لله. فقال له سامع: الحلف والتحميد هنا أمران مُريبان. أي يدعوان الى الشك والريبة في صدقه. على أن الرجل قد يكون صادقاً في كلمته وإنما يعالج بالحلف اشتهاره لدى نفسه ولدى الناس بالكذب في أمور أخرى غيرها. وقد يكون الحلف عادة عوَّدها، ولكنها توقفه موقف الرجل الظَّنِين المتهم في صدقه.

(٣) كثيرٌ من الناس يكرهون أن يُتَّهموا بالحماقة أو الغباء، أو السخف، أو الحقارة، أو ما شابه ذلك من أوجه النقص والعيب أكثر من كرههم أن يتهموا بالآثام والخطايا

والجرائم والشر — ولكن قلما يفطن المعاشر الى سبب هذا التفضيل ووجوبه إذ أن الرجل يكره ما يلحق به الاحتقار أكثر من كرهه ما يلصق به خوف الناس منه، وهو يعرف أن الناس قد يعجبون بالشر والخطايا ويزيد صاحبها عظماً وقدراً في نفوسهم ويفخرون بها. ولكن الناس لا يستعظمون السخف، ولا يجلون الحماقة والغباء، ولا يفخرون بهذه الصفات التي تزيد صاحبها احتقاراً في نظرهم فلا يستهين العاقل بنسبتها الى الناس اعتماداً على أنه لم يجعلهم من الأشرار ولم يقل إنهم من المجرمين فقد نسب إليهم ما هو أقبح في نظرهم وأكثر مجلبة للذم. على أنك قد ترى ساذجاً ينسبها الى صديق، فاذا غضب صديقه دُهِش وقال من غير تعمد للسخرية أنا لم أقل إنه مجرم شرير ولم أقل إلاّ أنه سخيف !!

(٤) كل إنسان يُفَضِّل أن يمدحه مادح بالصفة التي يدعيها لنفسه، وليست فيه أو ليست غالبة عليه، على أن يمدحه بالصفات الممدوحة التي يُقِرُّ له بها الناس ويعترفون بفضله فيها. لأنه في الحالة الأولى يكسب محمدة جديدة ولا يكسب شيئاً في الحالة الثانية إلاّ اعتراف بعض الناس بما لا يشك فيه أكثر الناس ولا يمارون. وهذا يذكرنا أن الكاردينال ريشليو السياسي الشهير ما كان يبتهج اذا مدحه مادح بحنكته السياسية وخبرته وبراعته وانما كان يسره أن يمدحه مادح باجادة فن من الفنون الجميلة لم يجده ولا برع فيه ولا أتقنه. وهكذا أكثر الناس كأنهم ما سمعوا قول الامام علي رضي الله عنه (قيمة كل امرىء ما يحسن).

(٥) مهد لنفسك منفذاً الى عقول الناس من طريق قلوبهم وما تشتهي نفوسهم فان عقول أكثر الناس وعرة صعبة المسالك ملتوية، وعندي ان هذه النصيحة تنفع أيضاً مع من كان الطريق الى عقله موطأً سهلاً ممهداً فاذا لجأت اليه من طريق قلبه وجدت عقله ازداد سهولة وصار أخف مؤونة وقد لا يكلفك طريق قلوبهم الاّ البشاشة والملاينة وطيب الذكر وحسن القول.

(٦) كما أن النقود الصغيرة من العملة القليلة القيمة لاغنى عنها في معاملات الناس اليومية الصغيرة، فنقود الفكر واللفظ القليلة القيمة لا غنى عنها في مجالس الناس ومحادثاتهم ومفاكهاتهم. ومن أراد أن يستبعدها وان لا يتعامل معهم في أمثال تلك المجالس الاّ بالفكر العويص والرأي العميق والفلسفة البعيدة والألفاظ الفخمة والتقعر في الكلام كان مثله مثل الرجل الذي لا يريد أن يتعامل في المعاملات اليومية الصغيرة الاّ بقضبان الذهب الثقيلة الكبيرة فتمتنع المعاملة. وهذا يذكرني قصة رجل كان له ابن هذه صفاته وكان الرجل في مرض الموت وأبى أن يرى ابنه الاّ اذا ترك هذه الصفات فوعد ابنه بتركها في زيارته

لابيه ولكنه لم يستطع مغالبة طبعه فكان الموت أحب الى أبيه من زيارته

(٧) بعض الناس مولعون بالأحكام العامة والجمل المألوفة والأمثال السائرة يرددونها كلما أتيحت لهم فرصة ويوهمون أنفسهم أنها تصدق في كل حالة. والعاقل من تجنب الاحكام العامة والجمل المألوفة فليست حالة الاّ وفيها اختلاف قلّ أو كثر عما يشابهها من الحالات. وكذلك الأمم والطوائف والجماعات تختلف آحادها فليس من الصواب أن يحكم المرء على أمة أو طائفة أو جماعة من الناس حكماً عامّا — وكثرة التشادق بالأمثال والجمل المألوفة التي صارت مسير الأمثال لا يلجأ اليها إلاّ من لا يميز دقائق الفكر. وبعض الناس لا ينتهي من مثل الاّ ليبدأ مثلاً آخر أو حكمة معروفة، كأنه آلة الحاكي تردد من غير تمييز.

(٨) من العلم ما يكسب صاحبه رجاحة في عيون الناس وقلوبهم ومنه ما يكسبه زينة، والأول لا غنى عنه، ولكن ينبغي أن يذكر العاقل أن كثيراً من الناس لايستطيعون وزن الأمور ومعرفة رجاحتها وانما يحكمون بما هو رونق يرونه — وإذا كان حكم الناس بالنظر أكثر من حكمهم بالفكر، فقلما يصيب أحد النجاح الاّ اذا كان له نصيب من النوع الثاني من العلم.

(٩) إن المكارم الكبيرة والنعم السابغة قد يصنعها المرء بسفهٍ ويفعلها بخرق ويهجم بها على من يجود عليه بخطأ أو طيش وحماقة فتسيء مكارمه ونعمه الى من يصطنعها عنده فتصير أسوأ من الاساءة إليه اذا جاءت بلطف يثلم حدها ويفل غربها ويقلل ألمها. فربَّ نعمة قد تجلب عدوًّا، وإساءة قد لا تنفّر صديقاً.

(١٠) المشاكسة في الأمور الصغيرة من علامات ضؤولة النفس وكثيراً ما تكون مصحوبة بالشعور بالنقص يداويه صاحبه بمشاكسة أو مهاترة. أو مغاضبة، فتكون أظهر لنقصه عند من درس طبائع النفوس

(١١) من أسباب النجاح الصبر على مضض الحديث الغث المُمِلّ، أو على سماع رغبات الرجل المشاكس أو المُلِحّ، وهو إصغاء لا يُلزمك عملاً تعمله — أو خطة ترسمها وتتكلفها وتنفذها — وقد تجد شيئاً من الفكاهة اذا عوّدت نفسك هذا الصبر وقد تجمع الى الفكاهة فائدة أخرى وهي دراسة نفس محدثك وفي دراسة النفوس لذّة بالرغم من ألم ذلك الصبر ومضضه وبعض من اشتهر باللباقة من الساسة، وبالحُنْكةِ فيها، أكثر بضاعتهم الاصغاء لابتسام

(١٢) اذا هششت للناس وتبسطت وتسهلت ظن من ينصب الحبائل للناس ويدبر الوسائل لاقتناص الكسب منهم إنك لست ممن يَنصِب الشرك أو الشباك فلا يُعِدّ لك عدة، ولا يتخذ لك أهبة، ولا يلجأ الى الحذر معك، كما أن ذوي السذاجة يركنون الى طيب قلبك، ويستنيمون الى سلامة طَويّتك فتربح في الحالتين

(١٣) الأغرار من الشبان ومن لم ينتفع بتجاربه من الرجال يرون أنهم يكسبون بالعنف والشدة في كل معاملة أو معاشرة أكثر مما يكسبون بدهاء الخبرة ولباقتها وتأتيها في معالجة الأمور، ويعدون كل هذه الصفات ضعفاً وعجزاً وجبناً ورياء، وإنها صفات لا تليق وهم في عنفهم وشدتهم يَدّعون لأنفسهم الحكمة كما يدّعي السكران بأنه غير مخمور — وقد يكون ادعاؤه مضحكاً يدل على انه سكران، وإن أنكر ذلك إذ يترنح ويتلعثم ويتلجلج ويخلط ولا يبين في كلامه ويتكلف الاتزان ويتغاضب تارةً ويعاتب تارة وهذا أيضاً شأن الاغرار الذين ليس لهم إلاّ سبيل العنف

(١٤) اذا كان لك فضل فليس السبيل الى اعتراف العقلاء المبصرين والدهاة ولا الى اعتراف من يغمط الناس حق فضلهم وهم كثيرون ، أن تكيد الناس بمباهاتهم به في الأحاديث والمجالس وبأن تظهر لهم أنك تعرف من فضلك أكثر مما يعرفون، فان الناس قلما يغتفرون لك ذلك ويعدون فضلك إساءة اليهم وإنْ اعترفوا به سراً أو جهراً . وهم يحاولون انتزاع اليقين والثقة به من نفسك بأساليب مختلفة ، ولكنك قد تحملهم بالملاطفة وسياسة التأسي وأساليبها على اغتفار الفضل لك — وكذلك اذا كان لك فضل على إنسان بأن صفحت عن ذنب له أو إساءة أو زلة أو إذا كنت قد انتشلته من وهدة سقطة كاد يتردى فيها وأزرت به، فليكن همك أن تنسيه فضلك عليه واطلاعك على سيئاته وموضع النقص منه . فان كثيراً من الناس يحقدون على من اطلع على زلاتهم ونقائصهم وان كان اطلاعه عليها من ناحية انتشاله اياهم من وهدة زلتهم ومعونته لهم وانقاذهم من عواقبها ، فان تلك المعونة وذلك الانقاذ لا يشفعان لاغتفارهم اطلاعك على نقصهم . وفضلك في ذلك لا يشفع لك بل يزيد حرازة حقد من تفضلت عليه الاّ اذا كانت لك لباقة تنسيه فضلك عليه واطلاعك على نقصه، وقد يكون مثلهم مثل المرأة التي لطمت سائق الترام الذي رآها قد زلت قدمها وكادت تسقط تحت الترام فجذبها الى نفسه وانقذها من الموت .

(١٥) الناس قلما يغتفرون ذنب من إذا شرعوا يحدثونه أسرع الى اظهار معرفته للحديث. وبعض الاغرار ومن لم ينتفع بتجاربه لهم ولع عجيب بهذا التسرع الى اظهار معرفتهم حديث

الحدث — كأنهم يخشون ان يحسب الناس انهم قد فاتهم شيء من أمور العلم والدنيا لم يدركوه ولم يطلعوا عليه قبل حديث المحدث وهو اطلاع لا يزدهم فضلاً بل نقصاً في نفس المحدث الذي لا يهمه أن يزن قدر علم من سبقه واستلب حديثه وانما يهمه أن لا يسلب منه جليسه كرامة نفسه وان لا يشعره الاستخذاء

(١٦) ينبغي للعاقل أن لا يظهر الامتعاض والغضب إذا ظهر عليه انسان بالحجة أو بذّه هأواً وهأناً أو مزح معه مزحاً مستكرهاً . بل الكرامة والربح في أن يكظم غيظه وأن يسرّي عن نفسه وان ينظر الى هذه الأمور كأنه يشاهد مشهداً في عالم آخر من غير تصنع للكبر المضحك المغالى فيه والذي يجعله كالممثل الهازل ومن غير شجار أو مهاترة لأنه بهما يضيع كرامته ، ومن غير أن يأذن لفكره وذاكرته في معاودة هذه الأمور فيتعب ، ومن غير أن يلجأ الى التعريض في ثنايا كلامه بالسخر المعمى أو الواضح . وهذه أمور قد تسبب عداوات وثارات قد يشترك فيها أصدقاء خصمك وأقاربه ، فكأنك أثرت حول نفسك النحل من خليته وأقل ما في هذه الأمور من الضرر اذا لم يتخذ خطة متسعة النواحي لاغتيابك أن يأذن ويبتسم صامتاً لمن يغتابك كما قال الشاعر .

فسامع الذم مقرّ به   وقابل الغيبة كالقائل

(١٧) كثير من الناس لا يميزون بين التسامح والتسهل في المعاشرة وبين التمليق والنفاق فيأبون التسامح ويرفضون التسهل ويضحون بحسن المودة وطيب العشرة بأن يراجعوا كل انسان فيما يصف به نفسه أو ينسبه اليها أو يغلطوه أو يكذبوه أو يكثروا من مخالفته مع ان بعض الناس يَعُدُّ القليل من مخالفه تكذيباً — ويفعل المغلِّط المراجع المقاطع ذلك بدعوى نصرة الحق والانصراف عن التمليق والنفاق ، وإنما يفعل ذلك خشية ان يظهر إنسان بفضل يدعيه أو رأي يرتئيه أو حجة يدلي بها وتوهم المغلط المقاطع نفسه إنه إذا لم يفعل ذلك أضاع كرامته ولم ينصر الحق وأعان على الباطل بسكوته وكأنما تنهد الارض وتسقط السماء اذا لم يفعل ذلك فلا يميز الكبائر من الصغائر وإنما يكون الباطل الذي يحارب ما تخزل به أمور الناس لا ما يتسهل ويتسامح فيه العشير في العشرة .

(١٨) أحسن ما تكون الفضيلة إذا أرادها المرء كما يريد نظافة جسمه للراحة والصحة

والعافية لا للمباهاة ، وكما ان المرء لا يطلع الناس على نظافته ولا يلفتهم اليها ولا يحدثهم بها ، كذلك الحازم العاقل لا يحدث الناس عن فضيلته .

(١٩) في أكثر الأحايين اذا قال الانسان قولة مزح بريئة جرَّ اليها حديث محدثه وكانت صلتها بالحديث أو بانسان مذكور فيه تفسرها فانها تنقل الى انسان آخر له صلة أيضاً بالحديث مبتورة ويخفي ناقلها صلتها بحديثه فتخرج عن معناها وتصير إهانة ، ولو ان ناقلها ذكر حديثه وصلته به ما كانت اهانة . فيحسن تجنب المزح البريء اعتماداً على صدق الناقل إذ كيف تكفل صدقه ؟

(٢٠) الحازم لا يشارك المغتاب بالكلام ولا يشاركه بالاصغاء والسكوت فقابل الغيبة كقائلها وإنما يجمل ان يقول انه لا يعرف من أمر الغيبة شيئاً وهو اذا لج في انكارها جنى فوائد منها ان الناس تبرئه من الغيبة وتعده غير متتبع أخبارهم فيقل حذرهم منه ، وكلما أمعن في اظهار الجهل والانكار أكثروا من تعريفه ما يدعون معرفته من أخبار غيرهم ، إذ ان الناس منهومون بادعاء معرفة أخبار الناس وأسرارهم وكلما قلت معرفتهم زادت نهمتهم باطلاع معاشريهم على ما يدعون معرفته ، ومنهم من يستطيل بادعاء صداقة الناس بالباطل كي يستطيل بادعاء معرفة أخبارهم وأسرارهم بالباطل أيضاً .

(٢١) في الناس أصناف يجمل ان لا يشركهم العاقل في خاصّة شؤونه ، ولا ان يطلعهم على بواطن أمره وأخباره وأسراره . ومن هؤلاء الغرير الجاهل فانه يذيعها كي يعرف أنه عالم بالناس ، والخائن كي يوهم الاغرار ان غيرهم قد ائتمنه ، والماكر الداهية كي يفيد من اذاعته ما يستطيع ، والخبيث إذ أنه يحولها مادة صالحة للأذى يؤذي بها من أشركه في أمره ، والزميل الذي ربما جعلته الحياة منافساً فيتخذ منها مادة لمنافسة زميله وتنقصه كي يفوز في موضوع المنافسة بدلاً منه . والمنافس مهما كان شهماً ذا مروءة لا يؤتمن على سر أو خبر أو شأن خاص، إذ ان المنافسة قد تحمل الناس على الانصراف عن سبيل المروءة حتى يفوزوا في المنافسة ، ثم يعودون الى مروءتهم وشهامتهم بعدها .

ع . ش

التعريف

بشرح التصريف

المسمى بالمنصف

إنه كما يفهم من العنوان كتاب في علم التصريف أو علم الصرف وهذا الكتاب مؤلف من متن وشرح ، المتن لامام اللغة العربية وعلومها في عصره أبي عثمان بكر بن محمد بن بقيّة المازني المتوفي سنة ٢٤٩ ﻫ والشرح لامام اللغة العربية وعلومها في عصره أبي الفتح عثمان ابن جني المتوفي سنة ٣٩٣ ﻫ وقد سمّى هذا الشرح المنصف .

من هذا الكتاب بدار الكتب المصرية بميدان احمد ماهر بالقاهرة نسختان خطيّتان الأولى من كتب الامام العلامة الحافظ الشيخ محمد محمود بن التلاميذ التركزي الشنقيطي وقد نقلت مع كتبه الى هذه الدار بعد وفاته وهي محفوظة فيها برقم ٢ ش صرف ومكتوبة بخط مغربي دقيق ، في قراءته بعض العُسر (وهي كهذه المجلة طولاً وعرضاً تقريباً غير أن عدد صفحاتها ٣٧٠) والنسخة الثانية من هذا الكتاب من كتب العلامة الجليل احمد تيمور باشا ونقلت مع كتبه هي الأخرى بعد وفاته الى هذه الدار وهي محفوظة فيها برقم ٦٥ صرف تيمور وهي منقولة عن النسخة الأولى بخط نسخ واضح (وهي كهذه المجلة طولاً وعرضاً غير أن عدد صفحاتها ٧٨٠ صفحة)

وكل من النسختين أربعة أجزاء الجزآن الأول والثاني في النسختين اشتملا على المتن والشرح جميعاً واستوفياها ، والجزء الثالث فيهما فيه تفسير المشكل من اللغات التي أوردها أبو عثمان المازني في المتن ، والجزء الرابع فيهما فيه تفسير مشكلات التصريف التي أوردها أبو الفتح عثمان بن جني في الشرح

وأما مباحث الكتاب فهي في ثمانية عشر باباً وهي (١) باب الأسماء والأفعال كم يكون عددها في الأصل وما يزاد فيهما على الأصل (٢) باب ما تجعله زائداً من حروف الزيادة (٣) باب ما قيس من الصحيح على ما جاء من الصحيح من كلام العرب (٤) باب الياء والواو

اللتين هما فاءان (٥) باب من مسائل الياء والواو اللتين هما فاءان (٦) باب ما الواو والياء فيه ثانية وهما موضع العين من الفعل (٧) باب ما لحقته الزيادة من هذه الأفعال من بنات الثلاثة (٨) باب ما جاء من الأسماء ليس في أوّله زيادة من الواو والياء اللتين هما عينان (٩) باب ما تقلب فيه الواو ياء (١٠) باب ما يكسّر عليه الواحد ممّا ذكرنا (١١) باب ما اللام فيه همزة من بنات الياء والواو اللتين هما عينان (١٢) باب الياء والواو اللتين هما لامان (١٣) باب ما تقلب فيه الياء والواو ليفرق بين الاسم والصفة (١٤) ما تلزم الياء فيه بدل الواو إذا كانت فعلت فيه على أربعة أحرف فصاعداً (١٥) باب التضعيف من بنات الياء نحو حييت وأحييت (١٦) باب التضعيف من بنات الواو (١٧) باب ما قيس من المعتل ولم يجيء على مثاله إلاّ من الصحيح (١٨) باب ما تقلب فيه تاء افتعل عن أصلها ولا يُتكلم بها على الأصل البتة

وتحت هذه الأبواب فصول كثيرة جدًّا فيها من دقائق التصريف واللغة وتحرير لهجات العرب ووجوه الخلاف بين العلماء وتحليل الألفاظ وبيان مقاييسها وأسرار العربيّة ما برّز فيه ابن جني على المتقدمين وأعجز المتأخرين، وكلها تدور حول تغيير في بنية الكلمة لا لغرض معنويّ طارىء بمقتضى هذا التغيير كتحويل المكبر الى مصغر في نحو كتاب وكُتَيِّب وكتحويل المصدر الى أفعال نحو الضرْب تقول منه ضرب يضرب اضرب وهكذا وإنما هذا التغيير لغرض لفظيّ كالإلحاق والتخلّص من التقاء الساكنين والتخلّص من اجتماع الياء والواو وسبق إحداهما بالسكون .

وقد حصر العلماء هذا النوع من التغيير في أبواب واختلفوا في عددها وفي أسمائها وقد اخترت لها هذا العدد وهذه الأسماء وهي الاعلال والتصحيح والزيادة والحذف والقلب والإبدال الصرفيان والتسكين والتحريك والادغام .

وهذه هي بحوث علم التصريف كما يراه المتقدمون ومنهم مؤلفا هذا الكتاب وكما يراه بعض المتأخرين كالإمام ابن مالك فإنّه عقد للتصريف في كتابه التسهيل وفي ألفيته في النحو بابًا ذكر تحته هذه البحوث التي يكون التغيير فيها لغرض لفظيّ لا لغرض معنوي

غير أنّ أكثر المتأخرين توسعوا في مدلول علم التصريف فعرفوه التعريف الآتي : التصريف هو تغيير في بنية الكلمة لغرض معنويّ أو لفظيّ. فالأوّل كتغيير المفرد الى التثنية والجمع نحو محمد : تقول فيه محمدان ومحمدون وكتحويل المصدر الى الصفات نحو القول : تقول منه قائل ومقول وقؤول وقوّال وغير ذلك والثاني كتغيير قوَل وغزَو وبيَع ورمَي وسما ونباي الى قال وغزا وباع ورمَى وسماء وبناء . ودوّنوا هذا العلم بهذا التعريف الواسع

في كتب أجلّها جميعاً الشافية لابن الحاجب . على أنّ الشافية أهملت بعض بحوث القسم الأوّل لأنّ مؤلفها ذكرها في كتابه الآخر في علم النحو المسمى الكافية وذكر في الشافية بحوثاً أخرى ليست من القسمين ، ولا هي من علم الصرف ، بل من علمي الصوت ورسم الحروف .

والقول الفصل في هذا هو أن بحوث التغيير في بنية الكلمة لأغراض معنوية بحوث كثيرة جدًّا وهي اشتقاقية أولى بها أن تضم الى بحوث علم الاشتقاق ، وأن بحوث التغيير في بنية الكلمة لأغراض لفظية كثيرة هي الأخرى وجديرة لكثرتها ودقتها أن تستقل بعلم وبكتب وبدراسة وبمتخصصين بهذه الدراسة وأنّ الجمع بينهما في علم واحد وفي كتاب واحد مخالف لآراء المتقدمين والحذّاق من المتأخرين ، ومخالف لسنة النشوء والارتقاء كل المخالفة ، لأنّ هذه السنة تسير بالعلوم الى التفرّع والانفصال لا الى التجمع والاتصال وهذا هو سرّ رقيها وتقدّمها .

* * *

والكتاب مكتوب على الطريقة السلفية التي سلكها سيبويه في الكتاب وعبد القاهر الجرجاني في كتابيه دلائل الأعجاز في علم المعاني وأسرار البلاغة في علم البيان كتابة فصيحة خالية من الاصطلاحات العلمية ومن الأساليب المعقدة .

وقد كان مؤلف المتن إمام عصره في اللغة والأدب والنحو والصرف والرئيس الذي انتهت اليه الرياسة فيها في البصرة وكان معنيًّا كل العناية بعلم الصرف يحرر مسائله ويدارس العلماء إياها ويرشدهم الى الصواب إذا أخطأوا . وكان علم الصرف الى ذلك العهد في طور النشوء والتكون حتى أصبح حامل لواء هذا العلم وحده غير منازع وما زال ، حتى حرر مسائله وجمعها في هذا الكتاب فكان أول كتاب دوّن في هذا العلم وحده فلم يسبقه أحد اليه .

وكان مؤلف الشرح هو الآخر إمام عصره في اللغة والأدب والنحو والصرف والرئيس الذي انتهت اليه الرياسة فيها في بغداد وكان معنيًّا بعلم الصرف عناية خاصة شغلته به طوال حياته لأن السبب الذي حمله ترك التصدُّر للتدريس والرجوع الى طلب العلم مرة أخرى وملازمته أستاذه الامام أبا علي الفارسي طالباً دهراً طويلاً ، مسألة صرفية . ولذلك لم يكن في علومه مع علو كعبه فيها جميعاً أكمل منه في علم الصرف ولم يصنف أحد في هذا العلم ولا تكلم فيه أحسن ولا أدق كلاماً منه وقد درس كتاب أبي عثمان المذكور على أستاذه الامام أبي علي الفارسي ولم يشرح هذا الكتاب إلاّ بعد أن برع البراعة كلها في علم التصريف ولم يطمع أحد بعده في أن يشرح هذا المتن .

فاذا عرفت قدر المؤلفين وعلمت أن كتابيهما المتن والشرح معاً أول كتاب وآخر

كتاب ألف في هذا العلم بهذا المعنى فلم يسبقا اليه ولم يلحقا فيه، عرفت قدر هذا الكتاب إنه فوق أقدار كتب الصرف جميعاً. شهد له بذلك العلماء المتقدمون.

وقد سألت الامام الحافظ الجليل المرحوم محمد محمود بن التلاميذ التركزي الشنقيطي الذي كان شاعر النيل حافظ بك ابراهيم رحمهما الله يقول فيه « انه مكتبة متنقلة » لكثرة حفظه وحسن ضبطه. سألت هذا الامام مرة وكنا منصرفين من دار الكتب المصرية أيام كانت في درب الجماميز قبل أن تنقل الى مبناها الجديد بميدان أحمد ماهر « باب الخلق » ما خير كتاب في علم الصرف؟ فقال لي رضي الله عنه وأرضاه: الشافية لابن الحاجب وخير منها شرح ابن جني على تصريف المازني ولا يوجد الاّ عندي: ولعظيم ثقتي بالشيخ وغرامي باستقلال علوم العربية وبخير ما ألف فيها بقيت هذه الاجابة عالقة بذهني بنصها للآن وقد مضى عليها أكثر من أربعين سنة كأنني سمعتها منذ ساعة.

وعلى إثر وفاة الشيخ الى رحمة الله تعالى ونقل كتبه الى دار الكتب سارعت الى الاطلاع على هذا الكتاب. غير أنني لم أنتفع به لصعوبة في خطه فلما توفي المرحوم أحمد تيمور باشا الى رحمة الله هو الآخر ونقلت كتبه الى الدار اطلعت على نسخته وحينئذٍ عرفت قدر الكتاب وانتفعت به كثيراً. ولقد ذكرت هذا الكتاب وبينت قدره للمسؤولين من كبار رجال الدار في خلال هذه المدة الطويلة غير مرة ليطبع ولكنه لم يطبع.

والآن وبعد أكثر من أربعين سنة وقد طال الانتظار ونفد الصبر وبعد أن نشرت لمؤلفي الكتاب ترجمتين مطولتين في عددي يونيو سنة ١٩٤٦ م وأغسطس سنة ١٩٤٧ م من هذه المجلة الغراء أقدم هذا الكتاب بهذا التعريف إلى من يعنيهم أمر اللغة العربية، الدرة اليتيمة في تاج اللغات الشرقية، وأمر هذين الامامين الجليلين من أئمة اللغة العربية وبخاصة ابن جني الذي ترك أكثر من أربعين مؤلفاً كلها جيد جدير بالطبع ومنها في دار الكتب المصرية عدّة مؤلفات وأجدرها بالطبع السريع هذا الكتاب ثم كتاب سرّ الصناعة في حروف الهجاء وهو آية من آيات علوم العربية ثم كتاب المحتسب في شواذ القراءات وهو الآخر آية أخرى.

ولعل هذه الدعوة تجد قبولاً فيتقدم لطبع هذا الكتاب فرد أو جماعة أو معهد أو شركة فتزدان به المكتبات العربية في أنحاء العالم ويعتزّ به اللسان العربي.

وبهذا المقال أديت الأمانة التي حملتها منذ أكثر من أربعين سنة واللهمّ فاشهد.

عبد الله أمين

٤ – في التربية

الأسس الحيوية للتربية

– ١ –

انقسم علماء النفس فريقين حول مظاهر الحياة النفسية للفرد ، وتزعم واطسن الأمريكي المدرسة الآلية في تفسيره ، معتبراً الانسان آلة معقدة التركيب ، تفسرها قوانين الطبيعة والكيمياء ، وما الفرق بين الإنسان والآلة إلاّ في درجة هذا التعقيد . وقد بدأت هذه الحركة التي بلغت ذروتها في مدرسة واطسن بديكارت ، الذي سلب الحيوان القدرة على الشعور والاحساس ، ثم طبق أتباعه رأيه على الإنسان . ثم ظهرت المدارس النفسية الحديثة التي رأت في الإنسان اختلافاً جوهريًّا عن الآلة مهما تعقدت وتركبت ، هو الفرق بين الجامد والحي . فالكائن الحي يعمل ويسلك متكاملاً متحداً ولا ينتج مجموع أجزائه هذا الكل ، وإنما يعمل كل جزء عمله وكأنه يعلم مكانه بين الكل العام . ولو تمكن عالم كيميائي من خلق خلايا حية في معمله ، فلا ندري كيف تختص كل مجموعة بعمل خاص ، وتسير المجموعات منسجمة متحدة كما يظهر بين أجزاء الكائن الحى . إن ما يربط هذه الأجزاء ويؤلف بينها ويجعلها متكاملة هو الحياة ، وهي ما ينقص الأجزاء لو فصلت وأعيد تركيبها فأعوزها التكامل والوحدة .

فالكائن الحي يختلف في جوهره عن الآلة ، والكرة تتحرك بين قدمي اللاعب دون إرادتها ، وتخضع في اتجاهاتها لعوامل خارجية كمقاومة الهواء لها ، وقوة الجاذبية الارضية ، أما حركة الطائر على الغصن ، حين يرى قطاً يهاجمه ، فينطلق حائماً برهة ثم يلجأ الى مأمن بعيد ، فهو سلوك متنوّع تلقائي ، يرمي إلى تحقيق غرض ، ويندفع الى تحقيق نتيجة تنبأ بها قبل تحقيقها . فالسلوك مغرض يرمي الى تحقيق غاية ، وغايته متصلة بسببه وهو نشاط حي لا نشاط جامد .

ومن صفات الكائن الحي النمو وتمثل الغذاء والتناسل لحفظ الجنس ، فاذا ما أصاب الحيوان جرح ، اندمل ، وإذا ما أصاب بعض الحيوانات بتر في طرف من أطرافه نما غيره وإذا مرض الكائن الحي سعى إلى الشفاء . يقول باترك Patrick تعدل الحياة نفسها بنفسها ، وتتكيف مع ذاتها ، وتخلد نفسها بنفسها . فأين ذلك في عالم الآلة ؟ إن الآلة لا تخلد نفسها أو تتكامل ! !

ووراء السلوك عقل من العسير تعريفه . ويرى مكدوجل أنه بناء متكامل قوامه قوى النفس ، ويرمي الى تحقيق «الغرض» وهو تفسير غامض في بعض نواحيه ، فما معنى القوى ، وما معنى الغرض ؟ وهل العقل مادة ؟ وما صلته بالجسم ؟ يرى أنصار التوازن الثنائي بين الجسم والنفس ، ان النفس مختلفة تماماً عن الجسم ، ومع ذلك يعملان متوازيين دون التقاء ، بينما يرى أنصار الوحدة أن الجسم والعقل حقيقة واحدة ، فهما شيء واحد ، ينتج عنهما معاً ظواهر النشاط . وترى جماعة ثالثة ان المنتج النهائي من النشاط لا يرتبط بالجسم ولا بالعقل وإنما هو شيء جديد . والواقع أن العقل والجسم لفظان من نسج الخيال ، وفرضان يعبران عن حقيقة نفسية واحدة ، فالكائن الحي كل متكامل ، ومظاهر سلوكه ونشاطه متنوعة ، ومصدر السلوك والنشاط في الذات هو البناء النفسي بمظهريه الشعوري واللاشعوري .

فما الشعور ؟ ندرك أننا نشعر ونريد ، وندرك أنواعاً من المشاعر ، وتكوّن المشاعر الخبرة الفردية ، والشعور مستمر نشط ، وخصوصيته الحياة التي تميزها عن الجماد ، وهي مقصورة على العالم البيولوجي الحي . يقول باترك « هل سمعنا أن الحجر المتدحرج يشعر ويحصل على خبرة ؟ » والشعور مظهر للحياة متصل بالذات لا ينفصل عنها ، ويبطل بزوالها ، وللشعور موضوع . فضرسي يؤلمني ، والألم هو الاحساس والخبرة . وقد قال ديكارت قديماً إن الخبرة أصل الحقيقة ، وإذا برهن الفيلسوف على بطلان العالم الخارجي ، فلم يستطع نفي وجود النفس الداخلية . والشعور هو ما يصل الانسان بالعالم الخارجي ، وهو الذي يساعده على فهم سلوك غيره ، وهو أساس قواعد علم النفس الذي يقوم على الأسس المشتركة للخبرات ، وعلى تفسيرها .

والشعور درجات . ولا نعي كل ما نشعر به . فقد أتذكر أن الساعة قد دقت منذ زمن

بعد حدوث الحدث ، بينما كان انتباهي حينئذٍ موجهاً الى شيء آخر ، ولا بد أن ما حدث أثر على سمعي تأثيراً لم يبلغ حد الانتباه الكامل . فالخبرات إما أن تحدث في مستوى الانتباه الشعوري ، أو فيما دون الشعوري . على أن هذا التقسيم مصطنع ، فلا ينقسم الشعور إلى درجات كغرف متفرقة . وإنما يقال ذلك لتسهيل التفسير . وللشعور مظاهر ثلاثة ، تتلون بها موضوعاته فله لون ادراكي ولون وجداني ولون نزوعي ، وقد يتغلب أحد هذه الألوان على اللونين الآخرين ولكنه لا ينعدم لون منها مهما صبغت العملية باللون الآخر ، ولا تنفصل في مظاهرها عن بعضها إلاّ بالتحليل المصطنع والتجريد العلمي ، فالخبرة الانسانية وحدة متكاملة دائمة التغير ، يوجهها تركيب نفسي دائم النشاط ، يوجه الشعور والسلوك ، ويحدث الخبرة . وهذا التركيب خفي لا يلاحظ في أثناء الشعور ، وإنما يلاحظ النفسي ، كما يقول ستوت Stout أن الامزجة متنوعة ، ومنها ما هو فطري وما هو مكتسب ، ويرجح مكدوجل McDougall أن المزاج ناتج عن نشاط التركيب النفسي .

أما اللاشعور ، كما يدعوه هارتمان Hartman أو البناء النفسي كما يسميه دريفر Drever فهو شيء يختلف عن الشعور ، فهو الذي يشكل الشعور ، فلدينا الشعور والخبرة من ناحية ، والبناء الذهني أو المزاج أو اللاشعور من ناحية أخرى .

— ٢ —

ولم يعد تقسيم القدماء للعقل الى ملكات صائباً ، فالعقل لا ينقسم الى ذاكرة أو حكم أو انتباه ، أو ما الى ذلك من ملكات تخفي الجهل وراء سلسلة من الألفاظ بمنهج تركيبي ، فالعقل وحدة متكاملة وله نشاط يسمى بأسماء ، وإنما نتذكر شيئاً ، ولا توجد ذاكرة ، وسعى العلماء إلى ملء الفراغ الناجم عن إلغاء نظرية الملكات ، فوضع ستوت « مظاهر الشعور » ومكدوجل « الغرائز » على أن نلاحظ أنها جميعاً ألوان للحياة النفسية المتكاملة ، ولا يوجد لها كيان موضوعي .

وأوسع مظاهر التركيب النفسي قدرته على الاحتفاظ ، أو القدرة الميمية Mneme وهي آثار العمليات الحيّة في البناء الذهني والعقلي والنفسي . ويحتوي الفرد تاريخ خبرة النوع والذات ، والقدرة الميمية مظهر احتفاظ المرء بخبرات الماضي ، وما يدخل في التذكر

الواعي جزء مما يتخلف في اللاشعور . والقدرة الميمية أوسع من مجرد التذكر الواعي ، وما ذلك إلا مظهر ميمي في مستوى الشعور . وإنما تعمل هذه القدرة أيضاً في مستوى دون مستوى الانتباه ، ويتضح ذلك في قدرة الحيوانات حتى الدنيا منها على الاستفادة من الخبرة . وقد أجرى مكدوجل تجربة أدخل بها دودة في أنبوبة ذات شعبتين ، دخلت من أيهما ، ولما سلط تياراً كهربائياً في أحدهما ، مرت بالآخر مرات متتالية . وما زال الكلب يدور في وجاره مرات قبل أن يطمئن اليه ، والطيور تبني أعشاشها بطريقة خاصة ، والسمك يبيض في أماكن يهاجر إليها دون تدريب ، وإنما هي خبرة الجنس في الجانب الاحتفاظي اللاواعي في نطاق واسع . وليست هذه القدرة مخزناً وإنما هي نشاط تلقائي ، لا وجود مستقل له ، فتأتي التجربة وتذهب ، وتبقى آثارها ، في صور تكيف في التركيب النفسي ، بل يعتبره الطبيعيون تأثيراً مادياً في المخ . ويسمي مكدوجل هذه الآثار باسم مركبات حية engrams وتساير القدرة الاحتياطية العامة قدرة ذات مظهر نشاطي ، توجه التركيب النفسي لملاحظة شيء دون شيء ، بأسلوب خاص . ويسمي شوبنهور هذا المظهر النشاطي الحي « إرادة الوجود » : Will to be ، وبرجسون « الدافع الحيوي » elan vital ، وشو « إلحاح الحياة » life urge ، وفرويد « الليبيدو » libido ، ونن « الدافع الهورمي » Horme وهو المظهر النشاطي بألوانه الشعورية واللاشعورية في الكائنات الحية ، وأقيمت عليها فلسفات تربوية ، أقامها فرويد ، مكدوجل على أساس النظرية الهورمية ، وفرويد على أساس الشعور واللاشعور ، مع اتحادهما في الاساس واختلاف في الفروع .

وتظهر الدوافع الهورمية في مستوى الشعور في الرغبة والارادة ، أي في المظهر النزوعي بمعنى واسع . فهو واضح في نمو غصن مكان آخر مبتور ، ونمو طرف لليربوع مقطوع ، وفي حياتنا من مظاهر الدورة الدموية ، والتنفس والهضم ومقاومة المرض ، واندمال الجروح ونمو الشعر والأظافر وانضمام الجفنين في الضوء اللامع ، فالدافع الهورمي هو المظهر الثاني للحياة في مستوى شعوري ولا شعوري وفردي وجنسي .

ولا ينفصل الدافع الهورمي عن الميمي ، وإنما ذلك تحليل مصطنع نظري ، وهما متحدان في النفس ، وينشطان لايجاد مركبات دائمة التجدد ، والعقل يؤلف بينهما . ولم تعد نظرية تداعي المعاني كافية لتفسير الحياة العقلية بوحداتها المستقلة ، والتحليل الشعور الى عناصر وأفكار

ووضع قوانين لها ، فإعادة تأليف هذه العناصر وربطها من جديد مستحيل ، وقائم على منهج تركيبي لا تحليلي . وإنما تهمل هذه النظرية وحدة العقل ، وتنسى أن الذرات فرض لا تأتي ذاتاً ، وآثار الخبرة هي العامل النفسي العام لا الخبرة نفسها ، ولا بد من تعديل تسمية هربارت للكتل ، وتسميتها بالوحدات الحية . أما تفسير التداعي الى زماني ومكاني وتضاد ، فهو صادق في أقله خطأ في جوهره وإنما المعنى أهم عامل في الترابط ويحدده ستوت Stout بأنه استمرار الاهتمام بالنسبة للفرد ، وإنما يمتنع القط عن القرب من صيدة ضربته بكنسها بعد تجربته الأولى معها ، وتكييف آثارها لحياته النفسية الداخلية ، فهو يسلك تحقيقاً لهدف مفرض .

— ٣ —

وقد ترتب على هذه الآراء الجديدة نتائج خاصة في التربية . فبين الآثار الحادثة وبين اندماجها في مركبات حية جديدة . فترة زمنية ، ويساعد على قوة هذه المركبات استمرار الاهتمام ومدى اتصاله بالحاجات ، سواء أفي أعمال تستدعي اكتساب المهارة أو في حل المشاكل العقلية . وكثيراً ما تحل المشاكل ، ويزداد التحسن في فترات النوم والراحة ، وتعمل المركبات بنشاط متوقف على مدى الاهتمام بالمشكلة ، وما يوليها الفرد من الحاح وعناية ، فكلما زاد الاهتمام ، زادت عملية التكامل ، وكلما اشتدت الرغبة في النجاح ، انفجرت الوحدات للتعبير ، فتقذف بالحل في حيز الشعور . ولذا كانت عملية تذكر ما على فترات متباعدة أبقى أثراً منها في فترة واحدة ، وكثيراً ما يسعى الفرد لتذكر شيء ما ، ولا يفلح فيتركه واذا به يتذكره فجأة ، وكذلك من الخير أن يترك التفكير في موضوع مدة حتى يختمر ، وان تترك الخطبة حتى تتماسك نقطها . وفي الأعمال اليدوية ، تكثر الحركات الزائدة في البداية ثم تسقط بالمران ، وقد قام ثورنديك Thorndike بتجربة استطاع قط فيها أن يفتح مزلاقاً لقفص به طعام بعد مرات معينة ، ثم قلَّ عدد المحاولات في المرات التالية ، ولا يشجع على اطراد التحسن مثل النجاح . ولا بد من فترات للتماسك بين المحاولات لاتقان المهارات وحل المشاكل ، واكتساب الخبرات الدائمة الأهمية ، والسعي الى الكمال والنضوج وما أحوج المدرسة الى مراعاة هذه الأسس الحيوية.

محمود حامد شوكت
حماه دبلوم في التربية وعلم النفس . ماجستير في الآداب

المادة والطاقة

أقنومان في واحد

من مستغربات اينشطين العلاّمة العظيم قوله : أولاً ان المادة تزداد كتلة كلما ازدادت سرعةً . وثانياً أن المادة والطاقة شيء واحد . وكل من القرابتين تتوقف على الأخرى ، أو بالأحرى الثانية تتوقف على الأولى.

حقاً إن هذا القول لغريب في نظر القارىء العادي . لأنه لا يرى أن الجسم الثابت في مكان ما (أي ليس متحركاً) ليس فيه أثر للقوة . ولكي يتحرك لا بد من أن تأتيه قوة من الخارج وتصدمه فيتحرك . ولذلك يظهر له بالتأكيد أن المادة شيء وان القوة شيء آخر . وأما قول اينشطين ذاك ، فيتراءى له سخافة مستهجنة . ولهذا ننقل ما قاله اينشطين بهذا الصدد في سياق الفصل الخامس عشر من كتابه « نظرية النسبية » .

إن حركة المادة السريعة لا تقل جداً عن سرعة النور التي هي منتهى السرعة في الوجود المادي . ولهذا تعتبر « السرعة المطلقة » . ونحن نرى هذه السرعة المادية الفائقة في الكهارب والأيونات Electrons and Ions . ومهما كانت سرعة هذين الصنفين مقاربة لسرعة النور فانها تبلغها ولا بدَّ من أن تكون أقل منها مهما عظمت القوة أو الطاقة التي تمحها .

« إن المسألة التي تهمنا في هذا البحث هي كيف تتوقف طاقـة كتلة من المادة على السرعة ... أهم نتيجة ترتبت على النسبية الخاصة هي افضائها الى ادراك ماهية الكتلة ... قبل اكتشاف ناموس النسبية كانت العلوم الطبيعية تعترف بنوعين من الخلود (أي عدم الفناء) مستقلين كلٌّ منهما عن الآخر: خلود المادة وخلود الطاقة (أي عدم قابليتهما للفناء أو الزوال) . المادة لا تفنى بل تتحول من حال الى حال . والطاقة لا تزول بل تتحول من صورة الى صورة . (كذا كان رأي علماء الطبيعة) إلى أن ظهر ناموس النسبية فأثبت أن كلاً من هذين النوعين من الخلود هما خلود واحد » — أليس لأن المادة والطاقة شيء واحد ؟

وهنا يشرع اينشطين بعملية رياضية في إثبات هذا القول الى أن يصل الى القول « بأن للجسم (أيّ جسم) صفراً من القوة (أي لا قوة له ، ولكن تكون له طاقة مضمرة Potential متى كان ثابتاً (لا يتحرك) ومتى شرع يتحرك تصبح له طاقة (بقدر حركته) وطاقته تزداد بازدياد سرعته ... » .

« ان كتلة الجسم الاستمرارية Inertial ليست ثابتة (المقدار) على حال واحدة . وانما تتغير بتغير طاقته . ان كتلة الجسم تعتبر مقياساً لطاقته » . وكذلك ازدياد سرعته يعتبر مقياساً لازدياد طاقته . الى أن قال « ومن هذا يفهم أن ناموس خلود كتلة الجسم هو نفس ناموس خلود طاقته . ناموس واحد لكليهما » إذن فهما شيء واحد

وحاصل القول أن لا كتلة مادية بلا طاقة تتضمنها . وكذلك لا طاقة في الوجود بلا مادة تظهر بها . ويؤيد هذا القول إنه ما ظهرت الطاقة في معادلة رياضية في الطبيعيات إلاّ مقرونة بالمادة ، أو هذه بتلك .

ولإيضاح هذا الناموس المزدوج بمثل واقعي نلفت النظر الى الأجسام الساقطة بحسب قانون جاليلو : « كلما هبط الجسم ازدادت سرعته » وبالتالي تزداد طاقته أو قوته . فهو قبل أن يهبط كان مرتكزاً في مكانه ولا قوّة له ، فلما ابتدأ يهبط شرع يسرع وقوته تظهر ، وكلاًّ من سرعته وقوته تزدادان معاً كلما أمعن في الهبوط : لما كان مرتكزاً في مكانه لم يسحق شيئاً . ولكن لما هبط سحق ما هبط عليه إن كان هذا قابلاً للانسحاق . ومعنى هذا أن قوته صارت كثيرة وعنيفة لما وقع على المكان الذي هبط إليه .

يظهر ذلك أكثر وضوحاً في مهابط الماء التي تستخدم قوتها لعمل من الأعمال كادارة حجر الرحى مثلاً ، أو ادارة الآلة المولدة للكهرباء . فالماء الذي يهبط في أنبوبة من علو قامتين تكون قوته أربعة أضعاف قوته اذا هبط من قامة واحدة . ويكون عمله أيضاً أربعة أضعاف . فعندما كان يهبط كان يتسارع . وفيما كان يتسارع كانت طاقته تزداد أيضاً بنفس النسبة . فالمادة والطاقة إذاً متماثلتان تمام التماثل في تزايدهما . وبالتالي في تزايد الكتلة أيضاً . هما أقنومان في واحد ،

هذا فحوى قول اينشطين . فانظر ماذا يقول السير تجامس تجينز (وهو أحد

أساطين العلم الستة في العالم) في كتابه : « العوالم من حولنا » في صفحة ١٨٩ : « ... كان حجر الزاوية في علم الطبيعيات في القرن التاسع عشر الذي هو بقاء المادة أو خلودها Indestructibility من جهة وبقاء الطاقة من جهة أخرى قد بطل بطلاناً تامّاً وأقيم مقامه ناموس آخر وهو بقاء ذاتية واحدة Entity هي المادة والطاقة . بطل أن تكون كل من المادة والطاقة على حدة خالدة البقاء أو متغيّرين (لا بل هما تتغيران معاً من حال الى حال لأنهما شيء واحد) .

الى أن يقول : — « ان الحرارة والنور والكهرباء كلها مؤلفة أو مكونة من الطاقة (كذا) . ونظرية عدم فناء المادة تؤيد هذا القول أي ان المادة نفسها تصير (بالتحوّل) شكلاً من أشكال الطاقة هذه » (أي أن المادة والطاقة معاً تتحولان بالتدمع الى حرارة ونور وكهرباء) .

« هذه الطاقة التي تنشىء الحياة على الأرض : — النور والحرارة اللذان يحفظان الأرض دافئة ويجعلان دفئها علة غلتها لاطعامنا . واختزان نور الشمس وحرارتها في الفحم والحطب — كل هذه تنشأ من فناء المادة أي حلّها ، وإذابتها بواسطة الاشعاع (وهو فناء الكهارب والكهيربات بانطباقها بعضها على بعض وتنافي ايجابيتها وسلبيّتها الكهربائيتين . وصدور الاشعاع Radiation الذي هو فوتونات بشكل حرارة ونور . هذا هو معنى ان المادة تفنى كذرات مكهربة ولكنها تبقى كفوتونات (ضوَيئات) غير مكهربة وإنما هي ذات مادة وطاقة معاً (وهي المادة الطاقية أو الطاقة الماديّة)

« ان الذريرات التي في الشمس والنجوم انما هي قوارير طاقة (فوتونات مادية) وكل قارورة عرضة لأن تنكسر وتُراق طاقاتها في الفضاء (نوراً وحرارة) . ومعظم الذرات التي تكوّنت منها الشمس والنجوم وابتدأت حياتها بها قد لعبت هذا الدور (في الانفجار الى فوتونات بالاشعاع) وكان لها هذا المصير . والذرات الباقية في الاجرام سيكون لها هذا المصير أيضاً . أي إنها تذوب رويداً بالاشعاع تحوّله الى حرارة وضوء (فوتونات) »

يقول « تجينز » ان هذا الذوبان يحدث بانحلال الذرات فتتحول الكبرى منها إلى صغرى كتتحول الاورانيوم إلى هيليوم ورصاص ، وفيض شعاعي ، والفيض الشعاعي هو طاقة بشكل حرارة ونور هكذا .

أوقية أورانيوم = ٠،٨٦٥٣ رصاص
٠،١٣٤٥ هيليوم
٠،٠٠٠٢ تشعع طاقة (فوتونات)

المجموع ١،٠٠٠٠ اوقية اورانيوم

يعني ان اوقية الاورانيوم متى ذابت نهائيًّا الى هيليوم ورصاص نقصت جزئين من الألف من وزنها . وهو الذي ذهب شعاعاً طاقياً بشكل حرارة ونور .

ليس أصرح من هذا البيان لاثبات ان هذا الذي نقص هو مادة بشكل طاقة أو طاقة بشكل مادة هي شيء واحد بلا نزاع .

* * *

ولنرَ ما قاله السير أدينغتون أستاذ الفلك في جامعة كمبردج ورئيس المرصد الفلكي ، وهو لا يقلُّ مقاماً علميًّا عن تجينز . قال في كتابه « طبيعة العالم المادي » The Nature of the Physical Universe في صفحة ٥٠ ، « كلما اقتربت سرعة المادة من سرعة النور ازدادت كتلتها الى ما لا نهاية له . ولهذا يستحيل ان تجعل المادة تسرع بسرعة النور وهذه النتيجة تستنتج من قانون الطبيعيات الكلاسيكية . وازدياد الكتلة تُحقَّق بعملية تجريبية المسارعة الى أعلى درجة من السرعة »

وفي صفحة ٥٩ يقول « إن أشعة بيتا التي تنفثها العناصر النشيطة الاشعاع كالراديوم إنما هي ألكترونات مندفعة بسرعة ليست أقل من سرعة النور كثيراً . والامتحان العملي أظهر ان كتلة ألكترون واحد من هذه الألكترونات الفائقة السرعة هي أعظم من الالكترون الساكن (غير المتحرك) . ونظرية النسبية تنبأت عن هذا الازدياد في الكتلة وأبانت قيمة توقف هذه الزيادة على السرعة . والزيادة التي نشأت من الكتلة ببطء إنما هي نسبية متوقفة على تحديد الكميات البسيطة للطول والوقت » ولا محل للتمثيل الذي ينصبه أدينغتون على هذا القول . فهو مسهب ومعقّد .

عسى أن يكون في هذا المقال ارضاء للاستاذ فؤاد جيمان .

نقولا الحداد

٣ - أمراض العيون

الزهري (١)

تأثير الزهري على العين

تبين مما تقـدّم أن ميكروب الزهري يكون موجوداً في الدّم وبعض أجزاء الجسم ، والعين جزء من تلك الأجزاء ، وتتألف العين — كما أوضحنا قبلاً — من الجفون والملتحمة والقرنية والقزحية والمشيمة والشبكية والعصب البصري وعظام الحجاج .

وقد سنت الحـكومة قانوناً للزواج — هو في دور التشريع — يوجب تحليل دم الزوج والزوجة قبل الزواج للتأكد من سلامتهما حتى يكون نسلهما سليماً من الزهري المـكتسب والوراثي ، فاذا وجد بهما أو بأحدهما شيء من ذلك عولج قبل الزواج

«الجفون» — ويصاب الجفن بقرحة زهرية ، كما تصاب أعضاء التناسل عند الرجل والمرأة وأقول بهذه المناسبة أنه ظهرت خمس حالات بقرحة زهرية في الجفون بمدينة طنطا في امرأة مصابة كانت تداوي بعض الفلاحات ، وتلعق الجفون بشفتيها ؟ وقد ذكر المرحوم الدكتور صادق بطنطا في اجتماع للجمعية الرمدية ، أن تلك الحالات كانت قرحة زهرية بالجفن

«القرنية» — وتصاب القرنية كثيراً بالزهري المـكتسب ، إنما أكثر الحالات تكون بالزهري الوراثي . وعلامات هذا المرض تظهر بين سن الخامسة وسن العشرين . ويسمى ذلك التهاب قرنية جوهري

وقد شهدت بعض تلك الحالات وكانت أولاها في سبتمبر سنة ١٩١٩ ، فقد دعيت لفحص ولد في الثانية عشرة من عمره ، وكان والده وقتئذٍ من الضباط العظام بالجيش المصري برتبة أمير الاي في السودان جاء الى مصر لقضاء اجازته فيهـا فرض ولده بالتهاب شديد في عينه

---

(١) نشر البحث السابق في مقتطف ديسمبر سنة ١٩٤٧

اليمنى واحمرار في المقلة وعتامة بالقرنية حتى صارت جميعها بيضاء كأنها نقطة كبيرة مع دمع غزير وضعف عن مقاومة الضوء . وكان هذا الولد يعالج عند أحد الأطباء بالمس والمكمدات الساخنة لاعتقاد هذا الطبيب أن هذا المرض هو عبارة عن التهاب عادي . وانقضت ثلاثة أشهر على ذلك العلاج والحالة تزداد سوءاً يوماً بعد يوم فلما فحصت الولد تبين لي أنه مصاب بالتهاب (قرنية جوهري) كما تبين لي من تاريخ العائلة وتاريخ المرض أنه يدل دلالة قاطعة على أنه زهري . فبدأت بعلاج الزهري دون تحليل الدم ، لأن الأعراض الاكلينيكية كانت زهرية ، وقد تحسنت حالة المريض بعد أن كان لا يبصر إلا خيال اليد إلى $\frac{٦}{٢٨}$ ، وفي اثناء العلاج أصيبت العين اليسرى بما يشبه ما أصيبت به العين اليمنى ولكن ما لبث الحال أن تحسن ، وصارت العين اليسرى تبصر $\frac{٦}{١٢}$ بعد ثلاثة أشهر ، وبعد سنة كاملة تحسن النظر في العينين الى $\frac{٦}{٦}$ بعد علاجه علاجاً كاملاً . وقد شفي هذا الولد وكبر وترعرع واجتاز الامتحانات العالية وأصبح اليوم من كبار المهندسين في مصلحة سكة الحديد .

* * *

انتهينا من تفصيل موضوع تأثير الزهري على القرنية — وهو التهاب القرنية الجوهري — وكيف أنه يظهر في نقط من القرنية عتامة تكون أولاً كالسحابة ويميل لونها الى الزرقة ثم ترتكز في نقطة وتكون عتامة بيضاء محاطة بلون سنجابي ، ولأنه لا تصحب تلك الحالات أعراض تهيجية ، فان المريض لا يلتفت اليها الا بعد أن يحس بتعب بصره ، وهذا التعب يكون عادة أكثر ما يفهم من حالة القرنية ، إذ قد تزداد المضاعفات فيحدث كف البصر مدة سير المرض في خلال إصابة العينين معاً . وقد تزول العتامة من غير أن تترك أثراً في القرنية كما يتبين من حالة القرنيـة قبل العلاج وبعده . وقد تستمر وتزداد سمكاً وتترك عتامة كبيرة تؤثر على قوة البصر . ويستمر هـذا الالتهاب زماناً طويلاً ولـكنه قد ينتهي بالشفاء في أغلب الأحيان .

﴿ العلاج ﴾ تستعمل المـكمدات الساخنـة والأتروبين والنظارات السود مع علاج الزهري بالحقن واستعمال يودور البوتاسيوم بكميات كبيرة .

ويستعان بالـكشف عن التغييرات بالمصباح والعدسات في الغرفة المظلمة

التهاب القزحية

وهناك أسباب متعددة لالتهاب القزحية والجسم الهدبي ، أهمها مرض الزهري والسيلان والروماتزم والسكر والسل والتهاب اللثة (البيوريه) والحميات جميعاً والدوسنتاريا وتعفن أو صديد بأحد أجزاء الجسم حيث يفرز مادة سامة تؤثر على القزحية الخ ....

﴿ أعراض المرض ﴾ ومن أعراض المرض احمرار بالمقلة وألم شديد بالعين والصداع ولا سيما في أثناء الليل ، وفزع من الضوء وغزارة الدمع ، اذ يندفع الدمع بقوة عند فتح العين ، ويخف البصر تدريجاً حتى أنه قد لا يصل الى خيال اليد ثم فقد النور تماماً ثم ضمور المقلة وهذا كثير الحصول في حالة الزهري من الدرجة الثانية ، والصداع الذي يصاب به المريض يحرمه النوم (حتى أنه يفاجىء طبيبه أول ما يفاجئه بقوله : « لم أنم يا دكتور طول الليل ولا لحظة واحدة ») .

ويستمر هذا المرض من شهر الى شهرين أو ثلاثة أشهر وقد يزيد على ذلك ، ثم لا يعود بعد الشفاء خلافاً لحالة التهاب القزحية الناتج من الروماتزم فانه يتكرر وقوعه .

وقد يحصل ارتفاع في ضغط العين بما يسمى « أغلوقوما » ثانوية وصداع شديد ويضعف البصر اذا لم يتدارك بعملية لنزول الضغط .

(وهناك ملاحظات فنية أخرى خاصة بالطبيب لا محل لذكرها هنا)

وما ذكرناه بشأن القزحية فانه يحصل عادة للجسم الهدبي

﴿ الجسم الهدبي ﴾ – وربما كان تأثير الزهري على الجسم الهدبي أكثر من أي جزء من أجزاء العين بالنسبة لشبكة الأوعية الموجودة بالقزحية (كما بينا ذلك فيما تقدم عند الكلام عن تشريح العين) وهي كذلك أكثر أجزاء العين احتقاناً فعندما تلتهب العين أي التهاب ، تمتلىء جميع الأوعية بالدم وتنتفخ وتفرز افرازاً كثيفاً يترتب عليه غشاء فوق الحدقة فتغطيها وتسدها سداً محكماً في بعض الحالات ويحدث التصاقات دائرية وافراز داخل الجسم الزجاجي يؤثر على الضوء الذي يصل الى باطن العين فيقل النظر .

وفي بعض الحالات الأخرى ينعدم النظر بتاتاً .

وبهذه المناسبة أذكر أن نسبة حالات الالتهاب القزحي في الزهري المكتسب تبلغ

نحو ٣٠ في المئة . وهي نسبة كبيرة لأسباب العمى .

ومتى أثّر الزهري في القزحية وسبَّبَ الالتهاب القزحي، فانه غالباً يؤثر على المشيمة والشبكية والعصب البصري . فاذا شوهدت حالة التهاب قزحي هدبي زهري ، وجب بحث المشيمة والشبكية والعصب البصري بحثاً جيداً .

﴿ العلاج ﴾ ويتم العلاج بالمكمدات الساخنة وتركيب الدود واستعمال الأتروبين ، والقطرة والمرهم والاسبرين (لتخفيف الآلام مع استعمال مركبات السلفانا)

وعلاج تلك الحالات مضمون نجاحها متى كانت في دورها الأول . فاذا حدث التصاق قزحي دائري وتركت الحالة بغير علاج، كانت النتيجة هي العمى المطلق في بعض الحالات

البلّورية ومحفظتها في الحالة الطبيعية

يوجد في الحالة الطبيعية غشاء شفاف زجاجي مرن متجانس في التركيب تحت الميكروسكوب مغلفاً للبلورية يسمى بالمحفظة البلّورية وله جزء أمامي يسمى « المحفظة المقدمة » وجزء خلفي يسمى « المحفظة الخلفية » ومحيط ملتصق يسمى بالرباط المعلق للبلّورية . وخاصية المحفظة البلّورية هي الزيادة والنقص في السمك بغير أن تفقد شفافيتها

أما العتامات التي تشاهد فيها فهي « كتراكتا محفظية » تتكوّن دائماً من الطبقة البشرية التي تفصلها من الألياف السطحية للبلّورية .

وشكل البلّورية عدسي أي محدودبة السطحين ، إلاّ أن سطحها الخلفي أكثر احديداباً من السطح الامامي، ويتركب جوهرها من جانب قشري ومن نوايا مركزية ، ذات شفافية تامة ، ثم يميل لونه الى لون كهرماني عند التقدم في السن ، فتعم النوايا المركزية عند وجود التهاب قزحي أو هدبي أو مشيمي .

ويعرف الالتهاب المشيمي بوجود لطخ مختلفة الشكل والحجم ، فتارة تكون قدر حلمة العصب البصري أو قدر ثلثه أو ربعه ، وتارة تكون أكبر من ذلك . والصغير منها يكون مستدير الشكل ، والكبير يكون غير منتظم وتستحيل اللطخة فيما بعد الى لون أصفر محاط بالسواد كخلايا الطبقة البشرية التي فسدت بالالتهاب ، وكلما تقدم المرض يضمر النسج المشيمي في النقط المصابة بحيث يرى الغشاء الصلبي تحته ، وحينئذٍ يحل محل اللون الأصفر.

والالتهاب المشيمي المنتشر هو الالتهاب الزهري ، ويعرف بوجود نقط بيض قدر رأس الدبوس ترى بالعين بجوار القطب الخلفي من مقلة العين أو في محيطها ، منعزلة أو منضمة بعضها الى بعض ولكنها منفصلة بحواف ذات لون داكن ، ومقرها خلف المشيمة . ويسري هذا الالتهاب بسهولة نحو الشبكية حيث يسمى الالتهاب المشيمي الشبكي الزهري الذي فيه تفقد شفافية المشيمة فتحتقن أوعيتها وتصير متعرجة ، ويصحب ذلك عتامات في الجسم الزجاجي تبدو على شكل رماد دقيق أو خيوط أو أغشية وتمنع ذلك رؤية باطن العين .

و « الكدرات » البصرية في هذا المرض كثيرة ، فيشكو المريض تارة من غيام عمومي وتارة أخرى من سحابة متموجة ، وقد يشكو من رؤية « لمعان » أو « تلون »

وببحث ميدان النظر ، يظهر ضيق دائري فيه ، أو فقد جزئي من مركزه ، وأما الحدّة البصرية فتنقص متى كانت الاصابة قريبة من « الماقولا » أو فيها ، وحينئذٍ تبدو الأشياء للمريض مشوهة الشكل ، أو أصغر من حالتها الطبيعية .

ويمكن شفاء هذا المرض متى كان حديثاً وبعيداً عن « الماقولا » والعكس بالعكس. وأسباب هذا المرض هو الزهري في معظم الأحوال ، وعلاجه هو نفس علاج الزهري واستعمال النظارات السود .

﴿ الشبكية ﴾ : والشبكية شفافة ولذلك لا يمكن رؤيتها وما يرى هو أوعيتها .

ويتركز الزهري البني في الشبكية كباقي أجزاء العين القزحية والمشيمة ، وتركيزه في الغشاء العصبي نادر ، وكثيراً ما يظهر الزهري على شكل التهاب « شبكي مشيمي زهري » .

﴿ الأعراض ﴾ : وأعراض هذا المرض تبدأ ببطء .

والحدة البصرية تتناقص تناقصاً عظيماً أكثر مما يظهر حين البحث بالمنظار خلافاً لما يشاهد في الالتهابات الشبكية الأخرى ، ومع ذلك فتناقص الحدة البصرية يكون بنسبة التغييرات التي تنتج من الماقولا ، وحيث أنها مصابة دائماً فانه يشاهد عتامات مركزية مع تغيير في الشكل وصغر في حجم المرئيات كالحال في أعراض الماقولا ، أما ميدان النظر فيكون محفوظاً وقد توجد فيه عتامات تقابل التغييرات الشبكية إذا كانت ممتدة .

ورؤية الألوان تكون ثابتة غالباً ، ويسير المرض بطيئاً وفي خلاله يكون البصر ضعيفاً ،

وتكون الاصابة غالباً في عين واحدة . وقد تكون الاصابة في العينين .

وقد يشاهد رشح الحلمة وجزء الشبكية الذي يجاورها ولا سيما من جهة الماقولا مع احتقان في الأوردة وتغييرات في الماقولا التي تزول ثم تظهر ثانياً . وتشترك المشيمة غالباً مع الشبكية في هذا الالتهاب كما تقدم . ويسمى المرض بالالتهاب الشبكي المشيمي .

وحالة المرض تكون حميدة أولاً فيمكن شفاؤه خلال شهرين أو ثلاثة ، كما يكون خطراً في الأحوال المستعصية ويكون الضمور نتيجة له .

بقي بعد ذلك الالتهاب الزهري للعصب البصري والحجاجي .

فالعصب البصري هو أهم وأكثر الأعضاء تأثراً بالزهري وهو على نوعين وهما الضمور الأبيض والضمور السنجابي

ولذلك أسباب شتى بينها الزهري – ومنها أورام بالمخ والحميات والأغلوقوما (الماء الأزرق) والاستسقاء الدماغي والالتهاب السحائي والتسمم الكؤولي ورضوض مقلة العين والحجاج والجمجمة والشبكية وانسداد الشريان المركزي .

وعند المشاهدة تكون الحلمة ذات بياض وسخ ودائرتها أقل وضوحاً ويرى ضمور في الأوعية الغليظة . ثم تظهر الدائرة أكثر وضوحاً ، ويحدث تغييرات كثيرة في الأوعية والأنسجة الخ . . .

ويرى المريض ضباباً خفيفاً يخفي عنه رؤية الأشياء البعيدة ثم يتعذر عليه النظر شيئاً فشيئاً . وقد يشاهد عتامات وبرقاً ولمعاناً ، ويرى في الليل أحسن مما يرى في النهار ، كما يتعب المريض من شدة الضوء . وتختلط عليه الألوان فيفقد رؤية اللون الأخضر ثم الأحمر فالأصفر وأخيراً اللون الأزرق .

ويضيق محيط ميدان النظر ويصبح غير منتظم . وأول ما يجب تشخيصه هو الاهتمام بمعرفة ضمور الحلمة وسببها . ويكون هذا المرض خطراً غالباً

﴿ العلاج ﴾ وعلاجه هو ذات العلاج الزهري إلاّ إنه عند ما يحدث ضيق في ميدان النظر الى درجة معلومة لا يحقن بالحقن المعروفة بحقن ٦٠٦ — والزئبق والبزموت حتى يتحسن ميدان النظر إلاّ أن حلمة العصب البصري تبقى سنجابية .

وتأثير الزهري على العصب البصري كثير في حالات يشاهدها الطبيب

﴿ الحجاج ﴾ وقد شاهدت حالات الزهري في الحجاج في بعض الحالات

﴿ العلاج ﴾ ويعالج المرض في الحالة الأولى بالحقن كما هو الحال في علاج الزهري . وتكون النتيجة شفاء تامًّا حيث أنه لايظهر أي أثر للورم

وعلاج الحالة الثانية كذلك كعلاج الزهري وتكون النتيجة الشفاء التام فيزول ورم الجفون ولا يبقى للارتخاء أي أثر .

ومما تقدم يتبين أن الزهري مرض فتاك ، تتأثر منه جميع أجزاء العين من الجفون الى العصب البصري الى الحجاج ، ولا يترك جزءاً من العين الا ظهر تأثيره عليه ، وتكون نتيجة علاج بعضها حسنة والعكس بالعكس .

الكتركتا والاغلوقوما

و « الميَّة البيضاء » و « الميَّة الزرقاء » من أمراض العين التي تشبه بعضها بعضاً ، ولكنها تختلف في العلاج . فبينما تبقى « الميَّة البيضاء » بدون عملية حتى تنضج (أي تستوي) ولا يبصر المريض بعينه إلا خيال اليد ، فإن المية الزرقاء » — في عرفي وطبقاً لخبرتي الطويلة — تعمل لها العملية بمجرّد الانتهاء من التشخيص والتأكد من أن المرض هو « ميَّة زرقاء » وليس « مية بيضاء »

وعلامات « المية البيضاء » هي ضعف تدريجي في نور الأبصار حتى ينتهي الى رؤية خيال اليد . أما « المية الزرقاء » فعبارة عن ضعف البصر ضعفاً تدريجيًّا أو دفعة واحدة يصحبه صداع شديد ، وقد يحصل الصداع ويضعف البصر ثم يعود الحال كما كان ويبصر المريض أهلة زرق حول النور مثل قوس قزح . وهي إما حادة ، وإما مزمنة . فالحادة : تأتي بصداع شديد وألم بالمقلة ، ويضعف البصر حالاً من $\frac{٦}{٦}$ الى $\frac{٦}{٩}$ الى $\frac{٦}{١٢}$ الى رؤية خيال اليد . والمزمنة : ضعف في البصر يصحبه صداع ثم يعود كما كان ، ثم يعاوده الصداع مرة أخرى ، ويتكرر ذلك الى أن يضعف البصر وينتهي بالعمى اذا لم يتدارك بالعلاج سواء باجراء عملية أو يعالج بالقطرة .

الدكتور عبد المسيح جرجس
حكيمباشي مستشفى الرمد الاميري بأسيوط والزقازيق سابقاً
٢١ شارع فؤاد الاول بمصر

حافظ وشوقي

صدى الحوادث عند الشاعرين

إعلان الدستور العثماني وخلع عبد الحميد

ويسلك شوقي في باقي أبيات قصيدته الطريق التي يسلكها حافظ ، فكما نسب حافظ الى السلطان فضل إعادة الدستور فقد نسب شوقي إليه ذلك فهو يقول :

أسدى إلينا أمير المؤمنين يداً   جلّت كما جلّ في الأملاك مسديها
بيضاء ما شابها للأبرياء دمٌ   ولا تكدّر بالآثام صافيها

ثم يقول : الرأي رأي أمير المؤمنين إذا   حارت رجالٌ وضلت في مرائيها
وإنما هي شورى الله جاء بها   كتابهُ الحقُّ يعليها ويغليها
حقنت عند مناداة الجيوش بها   دمَ البريةِ إرضاءً لباريها
ولو منعتَ أُريقت للعباد دِما   وطاح من مهج الأجناد غاليها

والذي يلاحظ أن قصيدة حافظ مليئةٌ بالفرحة والبهجة والتفاؤل أكثر من قصيدة شوقي ، ولعل مرجع ذلك الى الحيرة التي لازمت شوقيًّا بين طبيعة الشاعر الذي يحسُّ بفرح أمة لنهوض الروح الدستورية فيها وطبيعة عمله الذي يستوجب عليه أن يقف من هذه الفرحة هذا الموقف لأن في هذه الحركة تنبيهاً للشعب المصري الذي يطالب ببعث الحياة النيابية اليه فيلقى المعارضة والجمود من جانب الجهة التي يرتبط بها الشاعر أوثق رباط ، ولعله كان في صميم نفسه في ضيق من ذلك الكبت فجاءت قصيدته وعليها مسحةٌ من التفكير الهادىء الرزين .

حتى اذا حدثت الفتنة بعد ذلك ورأى القوم نية السلطان عبد الحميد في الائتمار بالدستور بعد إعلانه وخنقه من جديد فدخلوا عليه فأسقطوه عن عرشه في اليوم السابع والعشرين من شهر ابريل سنة ١٩٠٩ ونفوه الى سلانيك ، وكان لهذه الحركة ما كان لحركة إعادة

الدستور في العام الذي سبقه من هزة سرور وفرح عام . رأينا شوقياً يتجه غير ما اتجه إليه حافظ وبقية الشعراء ، فهو الذي طالما مدح هذا العاهل الكبير ، وكم أكرمه هذا السلطان وأحسن اليه واستضافه في زيارته الى الاستانة ، فكان شوقي الحافظَ لصنيع هذا السلطان والذاكرَ لجميله ، يؤذيه أن يلقى هذا العاهل المعظم في أخريات حياته ما يلقى ، وهو الذي قال عنه قبل خلعه بشهور :

أتى ثلاثون حولاً لم تذُقْ سِنَةً   ولا استخفّك لَذّات داعيها
مسهّدَ الجفن مكدود الفؤاد بما   يضني القلوب ، شجيَّ النفس عانيها

فهو يخاطبه بعد خلعه خطاباً فيه التعظيم والتبجيل ، ويبدأ قصيدته في هذا الانقلاب بهذين البيتين :

سلْ يلدزاً ذات القصورِ   هل جاءها نبأ البدورِ ؟
لو تستطيع إجابةً   لبكتْك بالدمع الغزيرِ

ثم يخاطب السلطان بهذه الأبيات :

سُدْتَ الثلاثين الطوا   لَ ولستَ بالحكم القصيرِ
تنهي وتأمر ما بدا   لك في الكبير وفي الصغيرِ
لا تستشير وفي الحمى   عددَ الكواكب من مشيرِ
كم سبّحوا لك في الروا   ح وألّهوك لدى البكورِ
ورأيتهم لك سُجّداً   كسجود موسى في الحضورِ
خفضوا الرؤوس ووتّروا   بالذلّ أقواس الظهورِ
ماذا دهاك من الأمو   ر وكنتَ داهيةَ الأمورِ ؟
دخلوا السرير عليك   يحتكمون في ربّ السريرِ
أعظِمْ بهم من آمرين   وبالخليفة من أسيرِ

ففي هذه القصيدة تتجلى عاطفة شوقي أكثر مما تتجلى في قصيدته التي نظمها بمناسبة إعلان الدستور، ذلك أن شوقياً كان يكنُّ في نفسه عوامل كثيرة من التقدير لشخصية هذا العاهل ، ولا ينسى فضله عليه كما ذكرنا ، وليس من الوفاء أن ينقلب عليه، فهو يتألم له، ويجلُّه

في سقوطه ، ولا يحمل عليه كما حمل غيره ، مما دعا وليَّ الدين يكن — وكان من الناقمين على السلطان ما لقي في حكمه من العنت والاضطهاد — الى أن يهاجم شوقيّاً بقصيدة من بحره ورَوِيِّهِ يقول فيها :

لمّا أُديل عن السريـ   ـر بكاه عبّاد السرير

وثمّة شيءٌ آخر ، ذلك أن شوقيّاً ، خُلق بطبيعته مؤرخاً ، وهذه الميزة فيه جعلته لا يحكِّم الهوى فيما يتناول من الأشياء ولا يلقي على الناس وعلى الحوادث حكماً سريعاً تمليه العاطفة، وكم تقود الى خطإٍ في وزن الأشياء وتقديرها، فهو يساير طبيعة المؤرخ ، لا طبيعة الخطيب الشعبي .

أما حافظ فقد كان متضارب العاطفة ، موزّع الرأي، بين أن يهاجم السلطان بعد أن جُرِّد من جبروته ، وضعف حوله ، وبين أن يرثي له ، ويتذكر أمداحه فيه ورفعه إيّاه فوق أجرام السماء ، فهو في القصيدة الأولى التي نظمها بعد خلع السلطان مباشرةً والتي يقول في مطلعها :

لا رعى اللهُ عهدها من جدودِ   كيف أمسيتَ يابن عبد المجيدِ
مُشبعَ الحوت من لحوم البرايا   ومُجيع الجنود تحت البنودِ

يحسّ انه سيظلم الرجل الذي مدحه زمناً فيقول :

فرح المسلمون قبل النصارى   فيك قبل الدروزِ قبل اليهودِ
شمتوا كلُّهم وليس من الهمّـ   ـةِ أن يشمت الورى في طريدِ
أنت عبد الحميد والتاج معقو   دٌ وعبد الحميد رهنَ القيودِ
خالدٌ أنت رغم أنف الليالي   في كبار الرجال أهل الخلودِ

غير أن طبيعة الخطيب الشعبي التي كانت تغلب على حافظ — الى جانب ما كان فيه من ميلٍ الى مجاراة التيّارات القوية التي تستميل الجماهير ، مما كان سبباً في مسايرة أحزاب متعددة — دفعت حافظاً آخر الأمر الى أن يجاري شعور أبناء البلاد العربية الذين هبّوا يهاجمون السلطان المخلوع هجوماً عنيفاً قاسياً، لأن التيّار في هذه الوجهة كان قويّاً ، ذلك من ناحية . ولعلّهُ خشي من ناحية أخرى السخرية التي قوبلت بها قصيدة شوقي من وليّ الدين

يكن . فنظم قصيدة أُنشدها في ٢٣ من يوليه سنة ١٩٠٩ في الحفل الذي أقيم بعد ثلاثة أشهر من خلع عبد الحميد احتفالاً بعيد الدستور العثماني ، وقد نسي حافظ في قصيدته هذه ما كان يقوله في عبد الحميد من آيات التمجيد والتكبير ، وبدأ يصوّر سياسة ذلك السلطان تصوير الساخر الشامت ، ورسم خلال ذلك صورة لوسائل الحيطة والحذر التي كان يحيط عبد الحميد نفسه بها ، فأبدع في الرسم . ثم قال يخاطبه على لسان الحق وهو في منفاه :

يناديه صوتُ الحقِّ ذُقْ ما أذقتهم   فكلُّ امرىءٍ رهْنٌ بما هو كاسبُهْ
هم منحوك اليوم ما أنت مُشْتَهٍ   فرُدَّ لهم بالأمس ما أنت سالبُهْ
ودع عنك ما أمَّلت إن كنت حازماً   فلم يبق للآمال فضلٌ تجاذبه
مضى عهد الاستبداد واندكَّ صرحه   وولت أفاعيه وماتت عقاربه

وهذه القصيدة لا تقلُّ في قسوتها على ذلك السلطان عن القصائد التي نظمها شعراء البلاد العربية الذين قاسوا من العهد الحميدي أشدَّ ألوان الجور والاستبداد ، ولمسوا سوء هذا الحكم . وإن كان الأستاذ أنيس المقدسي يرى أن الشعر المصري « قد قابل خلعه برعشة مقرونةٍ بالعطف والشفقة ، وذلك على ما يظهر لسببين : (١) لأن المصريين الحديثين لم يذوقوا من الادارة الحميدية ، ما ذاقه إخوانهم في الاقطار الأخرى (٢) ولأنهم كانوا إزاء احتلال أجنبي قد أثار حفائظهم الدينية والجنسية ، فليس من الوفاء الوطني وقد جاهروا مراراً بمودّتهم للعثمانية أن ينقلبوا على الخليفة الآن ، ويحطّوا من شأنه أمام الأجانب ، وقد كانوا الى الأمس يعظّمونه ويدعون له . فليس غريباً إذاً أن تظلّ علاقتهم بعرش الخلافة حيةً فعّالة ، وأن يكونوا أعطف على الهاوي عنه ، وأقرب الى الصفح عن سيئاته »(١)

* * *

من هذه القصائد في تلك المناسبة يتجلى لنا موقف شوقي المؤرخ الذي يسجل الحوادث دون أن يحكم لأيِّ جانب خشية أن يتحكم فيه الهوى بدافع العاطفة الشعبية . وإن كانت العاطفة الذاتية قد مالت به جانباً كما لا يخفى ، ذلك الى أن شوقياً لم يكن يبالي إرضاء الجماهير قدر مبالاته إرضاء النزعة الفنية فيه — فنيَّة التاريخ وفنيَّة الشعر .. أما حافظ

---

(١) كتاب « العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث » للاستاذ أنيس الخوري المقدسي — ص ٢٨

فكان كدأبه دائماً ، وكما هيأته ظروفه ، مسايراً للعواطف الشعبية ، حيث اتجهت ميولها وأفكارها ووثباتها ، مهما بدا تناقضه في هذه المسايرة .

على أننا اذا نظرنا الى هذه الآثار من الناحية الفنية وجدنا حافظاً قد استطاع أن يرسم صوراً فيها قدرة ، وفيها إبداع ، لأنه لم يكن مقيداً أو حذِراً عند إبداء فرحته بالدستور ، ولم يكن مكترثاً لشيءٍ من الماضي عندما هاجم الخليفة المعزول. ولكنه في قصيدته الأخيرة خالٍ من العاطفة الذاتية التي فاضت بها قصيدة شوقي ، وإن لقيت تلك من سخط الثائرين ما لقيت .

أحداث

ولنطوِ الحوادث طيًّا فقد مرّ بالشاعرين منها كثير ، ولكن كانت الظروف تحول بين أن يكون أحدهما أو كلاهما صريحاً أو على حدّ التعبير العادي — على حرّيته — فيما يقول . . فلقد مرَّ بهذا البلد في عصرهما حادثٌ لم يبدُ أثره في شعرهما، كما كان يجب أن يبدو واضحاً ، لأنه يكاد يكون عديم الأثر عندهما ذلك هو خلعُ الخديو عباس في ١٩ من ديسمبر سنة ١٩١٤ بعد إعلان الحماية على مصر بيوم واحد . . . ولقد تغيرت تلك الظروف ، وجُمع شعر الشاعرين بعد سنوات بعيدة ، ولكن لم تنشر لهما قصيدة تناولت هذا الحادث، وكان في استطاعتهما أن يكتبا شيئاً للتاريخ وإن لم يستطيعا نشره في حينه .

ولنطوِ ذلك لأن ظروفاً ألجأت حافظاً بعد ذلك الى الصمت حتى اذا أراد أن يشارك الشعور الوطنيّ سنة ١٩١٩ شاركه متخفيًّا ، ولأن ظروفاً قاسيةً أسكتت شوقيًّا وباعدت بينهُ وبين وطنه في وقتٍ هو من أحرج الأوقات في تاريخ هذا البلد فلم يستطع المساهمة بشعره في إلهاب الشعور ، حتى اذا عاد ، عاد يغرّد وحده لأن الطائر الذي كان يجاوبه آوى الى العشّ وسكت عن التغريد إلاّ بعض سقسقاتٍ لا تحمل من الغناء روحه ولا من القوة معناها .

لنطوِ ذلك طيًّا ، ولننظرْ في شيءٍ غيره ، أو لونٍ آخر من الأحداث ترك صدى في نفسيهما لا تكون الظروف فيه قيداً يغلّ شاعريتهما أو يدعو كلاًّ منهما الى التناقض مع طبيعة نفسه . وأمامنا من هذا اللون في شعر حافظ وشعر شوقي قصيدتان تناولتا كارثةً

أصابت بلداً من بلاد القطر ، هي كارثة حريق « ميت غمر » في عام ١٩٠٢ التي ظلّت النار تأكل فيها ثمانيــة أيام . وقصيدتان لهما تناولتا كارثة من كوارث الطبيعة ، الأولى لحافظ في زلزال « مسّينا » والثانيــة لشوقي في زلزال « طوكيو » . ثم قصيــدتان لهما في حادث الاعتداء على الزعيم الخالد الذكر سعد زغلول ... وذلك لنتبين مدى تصوير كلٍّ منهما لهذه الأحداث ومدى التوفيق في كل صورة .

* * *

فأما حريق « ميت غمر » فقد نظم فيه حافظ قصيدته التي يقول في مطلعها :

سائلوا الليل عنهمُ والنهـارا   كيف باتت نساؤهم والعذارى ؟

ونظم شوقي قصيدته التي يقول في مطلعها :

الله يحكم في المدائن والقرى   يا ميت غمر خذي القضاءَ كما جرى

ولكي نبدأ في تحليل القصيدتين نعود الى قصيدة حافظ لنرى كيف صوّر هذه الكارثة فهو يقول بعد هذا المطلع :

كيف أمسى رضيعهم فَقَدَ الأمَّ ، وكيف اصطلى مع القوم نارا ؟ !
كيف طاح العجوز تحت جدارٍ   يتداعى وأسقُفٍ تتجارى ؟ !
رَبِّ إن القضاءَ أنحَى عليهم   فاكشفِ الكرب واحجب الأقدارا
ومُرِ النار أن تكفَّ أذاها   ومُرِ الغيث أن يسيل انهمارا
أين طوفان صاحب الفُلك يروي   هذه النار ، فهي تشكو الأُوارا ؟
أشعلتْ فحمةَ الدياجي فباتت   تملأُ الأرض والسماءَ شرارا
غشيتْهم والنحس يجري يميناً   ورَمَتْهم والبؤس يجري يسارا
فأغارت وأوْجُه القوم بيضٌ   ثم غارت وقد كستهنّ قارا
أكلتْ دُورهم فلما استقلتْ   لم تغادر صغارهم والكبارا
أخرجتهم من الديار عراةً   حذر الموت يطلبون الفرارا
يلبسون الظلام حتى اذا ما   أقبل الصبح يلبسون النهارا
حلّةً لا تقيهم البرد والحرّ   ولا عنهمُ تردُّ الغبارا

وتلك صورة حيّة تبرز في كل آن لكل حادث من هذا النوع دون أن تفقد روعتها بانقضاء مناسبتها ، وهي صورة استطاع حافظ أن يجلوها رائعة تدبّ فيها الحياة لأنه استمد من نفسه ومن مرائي الشقاء التي لمسها في صباه وعاينها في شبابه الأول عندما التحق بالجندية ألوانا لهذه الصورة تبدو واضحة جلية ، واستمدّ من ينابيع آلامه ما بثّ الروح في هذ الصورة ... ولذلك نجده بعد هذه الأبيات يثور على المجتمع ثورة كانت مكبوتة فأثارتها الكارثة فيقول :

أيهـا الرافلون في حلل الوشـــي يجرّون للذيول افتخـارا
ان فوق العراء قوماً جياعاً يتوارون ذلّـةً وانكسارا

ويندفع ساخراً بالفوارق الاجتماعية ويندّد بالأفراح التي يهدر فيهـا سراةُ القوم المال الوفير يبذلونه عن سعة في مسرّاتهم وقد غفلوا عن آلام البائسين ودموعهم ، وكأنما قد مسّ هذا الحادث جرحاً عميقاً في نفسه فهو يقول :

قد شهدنا بالأمس في مصر عُـرساً ملأ العينَ والفؤاد ابتهارا
سال فيه النضارُ حتى حسبنا أن ذاك الفِـناءَ يجري نضارا

ولعلها كانت الصيحة الأولى في الشرق دوّى بها الشعر على لسان حافظ شاعر الشعب. ولقد كانت هذه القصيدة في مقدمة الحوافز الدافعة لظهور النزعة الاجتماعية عند حافظ الذي قُـدّر له أن يكون شاعرها المبرّز ، مما تجـلّى بعد ذلك في قصائد أخرى له كالقصائد التي نظمها في رعاية الأطفال وفي الأيتام وملجأ الحرية وغير ذلك⁽¹⁾ ، إن لم تكن هي الحافز الأول. هذه هي صورة تلك الـكارثة في شعر حافظ يجلوها زاخرة بالحركة ، ناطقة باللوعة ، متماسكة في وحدة تامة وعاطفة متقدة .

أما شوقي فقد بدأ قصيدته بالمطلع الذي أشرنا اليه ثم تحدّر منه الى أبيات في حكمة الصبر على المصائب ، وذكرٍ لمدن أصابها التدمير في التاريخ القديم كعمورة وسدوم ، حتى اذا أراد أن يصف الـكارثة كان مجهد القوى مهيض الجناح يقول :

طلعت عليك النار طلعة شؤمها فمحتْك آساساً وغيرت الدُّرا

---

(١) راجع القسم الاخير من الجزء الاول من ديوان حافظ ابراهيم ، نشرته وزارة المعارف عام ١٩٣٧

ملكتْ جهاتك ليلةً ونهارها   حمراءَ يبدو الموت منها أحمرا
لا ترهب الطوفان في طغيانها   لو قابلتْهُ ولا تهاب الأبحرا

وهذا البيت كأنما أراد به أن يردّ على حافظ في قوله :

أين طوفان صاحبِ الفلك يروي   هذه النار ، فهي تشكو الأوارا ؟

ثم يقول متابعاً صورته :

أمسى بها كل البيوت مبوَّباً   ومطنَّباً ومسيَّجاً ومسوَّرا
أسرتهمُ وتملكت طرقاتهم   من فرَّ لم يجد الطريق ميسَّرا
خفَّت عليهم يوم ذلك مورداً   وأضلَّهم قدرٌ فضلُّوا المصدرا
حيث التفتَّ ترى الطريق كأنها   ساحات حاتم غبَّ نيران القِرى
وترى الدعائم في السواد كهيكل   خمدت به نار المجوس وأقفرا
وتشمُّ رائحة الرفات كريهة   وتشمُّ منها الثاكلاتُ العنبرا
كثرت عليها الطير في حوماتها   يا طير كل الصيد في جوف الفرا

* * *

وهذه هي الصورة التي أراد شوقي وضعها لهذه الكارثة تبدو باهتة الألوان ، متهافتة الفظ ، مفككة الوحدة ، على غير عادته في الوصف . ذلك أن شوقيًّا لم يكتبها كما يجب أن تكتب ، ولأنه لم يحسّ في نفسه الألم الذي أحسّهُ زميله ، فهي صورة مترفة لا تعبر عن مصاب ، ولعلّ هذا البيت الذي قاله شوقي في هذه القصيدة يكشف لنا عن سرّ هذا العيب ليكون مؤيداً لنا في هذا الحكم إذ يقول :

ما زلت أسمع بالشقاء روايةً   حتى رأيت بك الشقاء مصوّرا

فان الإحساس بالرواية غير الإحساس بالشعور والتجربة ، وشوقي لم يشهد من المصائب والآلام ما شهد حافظ ، وفي ذلك يقول الأستاذ اسماعيل مظهر « إن بين جنبيْ شوقي روحاً ثائرة ونفساً متأججة . ولكنها ثورةٌ أشبه بثورة الرياح إذ تهبُّ فتيّة هوجاءَ ثم لا تلبث أن تمرّ عليلة ناعمةً ، أو نار الهشيم إذ تتأجج مندلعة الألسن في لحظة ، وتصبح رماداً في أخرى . والصناعة بين يدي شوقي انما تخضع لجمّاع هذه الصفات الفطرية الطبيعية . فحيث

تشتد ثورة نفسه تسمو معانيه وتقوى شاعريته . فاذا خبت نارها هبطت المعاني والشاعرية معاً الى منزلة لم ينزل اليها الكثيرون من شعراء هذا العصر . وحيث تتأجج بحادث يمس مشاعره تلمس النار سارية بين أبياته بل بين كلماته ، فاذا هدأت العاصفة ونامت طوى عليها وعلى الشعر ستراً من ميوعة الفطرة ولين الطبع ينزل بشعره الى المستوى الذي لا يحسده عليه الكثيرون من أهل صناعته » [1] .

ولعل الأستاذ مظهر حين أطلق هذا الرأي بمناسبة تكريم شوقي منذ عشرين عاماً كان ينظر الى هذه القصيدة بالذات كما ننظر اليها اليوم .

* * *

أما حادث زلزال « مسينا » الذي صوّره حافظ وحادث زلزال « طوكيو » الذي صوّره شوقي فقد كان مصدر الشاعرين فيهما خيالهما ، فهما من باب الاستيحاء البعيد . فأما حافظ فقد انتفع بألوان من قصيدته في حريق « ميت غمر » فغمس ريشته فيها ، ولكن لم يستطع أن يبلغ ما بلغ من قبل ، فالحركةُ الطبيعية في قصيدته الأولى تقابلها حركةٌ مفتعلة في قصيدته الثانية ، فهو يفتتح هذه القصيدة بقوله :

نبّئـاني إن كنتما تعلمـانِ   ما دهى الكون أيها الفرقدانِ
غضب اللهُ أم تمرّدت الأر   ض فأنحتْ على بني الإنسان
ليس هذا سبحان ربي ولا ذا   ك ولكن طبيعة الأكوانِ
غليـانٌ في الأرض نفّس عنه   ثورانٌ في البحر والبركانِ
ربّ أين المفرُّ والبحر والبـ   رُّ على الكيد للورى عاملانِ

ثم يقول :

ما (لمسّين) عوجلت في صباها   ودعاها من الردى داعيانِ
وحت تلكم المحاسن منهـا   حين تمّت آياتهـا آيتـان
خُسفت ثم أُغرقت ثم بادت   قُضِيَ الأمر كله في ثوان

---

[1] (١) راجع بحثاً للاستاذ اسماعيل مظهر عنوانه « احمد شوقي ودلالة شعره على نفسيته » في كتابه « تاريخ الفكر العربي » ص ١٤٨ و ١٤٩

بغت الأرض والجبال عليها   وطغى البحر أيّما طغيان
تلك تغلي حقداً عليها فتنشقُّ انشقاقاً من كثرة الغليان
فتجيب الجبال رجماً وقذفاً   بشواظٍ من مارجٍ ودُخانِ
وتسوق البحارُ ردّاً عليها   جيشَ موج نائي الجناحين داني
فهنا الموت أسود اللون جَوْنٌ   وهنا الموت أحمر اللون قاني
جنّد الماءَ والثرى لهلاك الـ   ـخلق ثم استعان بالنيرانِ
ودعا السحب عاتياً فأمدّتـ   ـهُ بجيشٍ من الصواعق ثاني
فاستحال النجاة واستحكم اليأ   س وخارت عزائم الشجعانِ

هذه القصيدة يمكننا أن نسميها دون تجنٍّ قصيدة «جغرافية البراكين» ... فالافتعال والتصنع باديان فيها، ولولا الأبيات التي صوّر فيها الفاجعة لـمـا أحسسنا في هذه القصيدة شيئاً من القوة، وها هي الأبيات :

رُبَّ طفلٍ قد ساخ في باطن الأر   ض ينادي: أمّي، أبي، أدركاني!
وفتاةٍ هيفاءَ تشوَى على الجمـ   ـر تعاني من حرّه ما تعاني
وأبٍ ذاهلٍ الى النار يمشي   مستميتاً تمتدُّ منه اليدانِ
باحثاً عن بناته وبنيهِ   مسرع الخطو مستطير الجنانِ
تأكل النارُ منه لا هو ناجٍ   من لظاها ولا اللظى عنه واني
غصّت الأرض، أُتخم البحر مما   طوَياه من هذه الأبدانِ
وشكا الحوتُ للنسور شكاةً   ردّدتها النسور للحيتانِ
أسرفا في الجسوم نقراً ونهشاً   ثمَّ باتا من كظّةٍ يشكوانِ

نعم، لولا هذه الأبيات لفترت القصيدة كلها فلا نحسُّ قوة ألفاظها التي استعملها ليخلق لفكرته جوّاً مناسباً وليثير مشاعر السامع فلم يستطع الإتيان بصورة ترتفع الى مستوى قصيدته الأولى في حريق « ميت غمر » ولم يستطع أن يبلغ حدود الروعة التي بلغها شوقي – فيما بعد – في قصيدته عن زلزال « طوكيو » التي يقول فيها :

قف (بطوكيو) وطُف على يوكاهامهْ   وسلْ القريتين كيف القيامهْ ؟!

دنت الساعة التي أُنذر النا س وحلّت أشراطها والعلامه
قف تأملْ مصارع القوم وانظرْ هل ترى من ديارِ عادٍ دعامه
خُسفت بالمساكن الأرضُ خسفاً وطوى أهلها بساط الإقامه
طوّفت بالمدينتين المنايا وأدار الردى على القوم جامه
لا ترى العين منهما أين جالت غير نقضٍ أو رمّةٍ أو حطامه
حازهم من مراجل الأرض قبرٌ في مدى الظنّ عمقه ألف قامه
تحسب الميت في نواحيه يسعي نفخةَ الصُّور أن تلُمَّ عظامه
أصبحوا في ذرى الحياة وأمسوا ذهبت ريحهم وشالت نعامه

فالشاعر هنا يعطي الصورة المتخيلة حقها من الدقة ولا يدفعها دفعة واحدة ولكن يعرض المشاهد لمحةً فلمحة ويصوّرها من مختلف الزوايا حين يقول :

دولة الشرق وهي في ذروة العزّ تحار العيون فيها فخامه
خانها الجيش وهو في البرّ درعٌ والأساطيل وهي في البحر لامه⁽¹⁾
لو تأملْتها عشيّةَ جاشت خلتها في يد القضاء حمامه
رجّها رجّةً أكبّت على قر نيهِ (بوذا) وزلزلت أقدامه
استعذنا بالله من ذلك السيـل الذي يكسح البلاد أمامه
من رأى جلمداً يهبُّ هبوباً وحميماً يسحُّ سحَّ الغمامه
ودخاناً يلفُّ جنحاً بجنحٍ لا ترى فيه معصميها اليمامه
وهزيماً كما عوى الذئب في كل مكانٍ وزمجر الضرغامه !

وتنبعث الحركة في جوانب الصورة طبيعية لم يفتعلها شوقي كما افتعلها حافظ ، ولم تأخذ طريقها بالروح الجغرافي الذي لبس حافظاً حين أراد الاستيحاء والتصوير ، لأن هذا هو مجال شوقي الطبيعي ، فهو هنا الرسّام البارع الذي يضرب بريشته ضرباتٍ سريعةً تترك أثرها على اللوحة في غير تهويل أو تصنع ، وحين يرسم الصورة التي حاول حافظ رسمها كشاعر، ولم يوفّق الى ذلك يقول :

---

(١) لامة = درع

أتت الأرض والسماء بطوفا   نٍ ينسّي طوفان نوح وطامه
فترى البحر جُنّ حتى أجاز الـــبرَّ واحتلّ موجُهُ أعلامه
مزبداً ثائر اللجاج كجيشٍ   قوّض العاصفُ المبوب خيامه
فُلك نوحٍ تعوذ منه بنوحٍ   لو رأتْه وتستجير ذمامه
قد تخيلتُهم منابيل سحرٍ   من قراع القضاء صرعى مدامه
وتخيلتُ من تخلّف منهم   ظنّ ليلَ القيام ذاك فنامه
أبراكين تلك أم نزواتٌ   من جراحٍ قديمةٍ ملتامه

فالأفق في هذه الصورة أبعد وأوسع ، والتصوير أبلغ وأروع حتى من القصيدة التي رسمها حافظ لحريق ميت غمر وسبق بها شوقيًّا في ذاك الوقت… ومن ذلك يتبين أن باع حافظ في التخيل البعيد قصير بالنسبة لشوقي ، ولعلّ مرجع ذلك الى ما أشار اليه الدكتور طه حسين بك من أن «طبيعة حافظ يسيرة جدًّا لا غموض فيها ولا عسر ولا التواء» (١). لذلك «لن تجد في هذا الشعر عمقاً ، ولئن حللته وأخرجته من صورته الرائعة فلن يترك في نفسك أثراً» (٢) . أما طبيعة شوقي فشيءٌ آخر ، معقّدة ينبئنا شوقي نفسه بتعقيدها . فيها أثرٌ من العرب وأثرٌ من الترك وأثرٌ من اليونان وأثرٌ من الشركس . التقت كل هذه الآثار وما فيها من طبائع واصطلحت على تكوين نفس شوقي فكانت هذه النفس بحكم هذه الطبيعة أو الطبائع أبعد الأشياء عن البساطة وأناها عن السذاجة ، وهي بحكم هذا التعقيد والتركيب خصبة كأشدّ ما يكون الخصب ، غنية كأوسع ما يكون الغنى» (٣).

* * *

ومن ضعف حافظ في هذه القصيدة يتجلى لنا عجزه عن الوقوف أمام مشاهد الطبيعة وقفة التأمل الشاعري والاستغراق الحسيّ فيها واستكناه أسرارها ، على العكس من شوقي الذي كان يمدّه تفكيره الواسع وخياله الوثاب واستغراقه في مشاعر الطبيعة وحبه لها

---

(١) كتاب «حافظ وشوقي» للدكتور طه حسين بك صفحة ١٩٦ (٢) و(٣) المرجع نفسه صفحة ١٩٨ و ١٩٩

على إبراز كثير من الصور حية متحركة ... وقد ذكر المرحوم مصطفى صادق الرافعي عن حافظ أنه كان «أول نشأته يأخذ في طريقة المعرّي الذي عمي عن الطبيعة فجعل يخلقها من فكره ومحفوظه بمبالغات كاذبة يُغرق فيها يحسب انه بذلك يعظّم الحقائق فتخرج له الأخيلة الكبيرة وما يدري أنه بهذا الغلوّ لا يجيء إلاّ بالأباطيل الكبيرة . ولكن حافظ في مزاجه وتركيبه ونشأته كان رجلاً مبنيًّا على الوضوح والقصد فلم يفلح في طريقة المعرّي ، ووضوحه كذلك باعده من الفلسفة وإبهامها ومن الطبيعة وألغازها ومن الغزل ووساوسه ، وهو الذي ، أدّاه الى الشغف بالحقيقة واستخلاصها في كل أغراضه التي أجاد فيها . ومن ثمّ خلا شعره ، أو كأنه خلا ، من أوصاف الطبيعة في جمالها بلغة الفكر المتأمل ومن أوصاف الجمال في سحره بلغة القلب العاشق»(١) .

***

وعلى ذلك نستطيع أن نقول إن قصيدة شوقي تمتّ الى الحياة بأكثر من صلة واحدة في حين لا تمتّ قصيدة حافظ اليها بسبب إلاّ في الأبيات القلائل التي صوّر فيها الأشباح الحائرة ، وهي صورة قديمة وُلدت في خياله يوم نظم قصيدته في كارثة « ميت غمر » ولكن لم يُتَحْ لها الظهور إلاّ في حادثة « مسّينا » ... أما الصورة التي رسمها فهي أقرب الى الرواية الجغرافية — كما قلنا — منها الى التصوير الشعري الرائع المستمدّ عناصره من قوة الخيال وبُعد الأفق واتساع التفكير ... ذلك أن حافظاً تناول في تصويره للثورة البركانية الظواهر الخارجية كما قرأ عنها ، ولم يتغلغل الى الأثر الباطني الذي تتركه هذه الثورة في خيال الإنسان ووجدانه ، أي أن الشاعر لم يحاول — أو لم يستطع — أن يأتي بجديد عما هو مألوف في صورة البركان مما يتخيّله الإنسان العاديّ لها ، ولم يستطع أن يجري في صورته دماً يبعث فيها الحيوية ، ويشيع الحركة ، ويوقد الشعور ، ويحرّك الوجدان

حسن كامل الصيرفي

---

(١) راجع مقال «حافظ ابراهيم» للمرحوم مصطفى صادق الرافعي في «مجلة المقتطف» في عدد اكتوبر ١٩٣٢ ج ٣ م ٨١ ص ٢٧٤

مشهد من مسرحية كليوبترا (١)

للشاعر محمد فهمي

(في جانب المسرح باب يفتح على ركن شبه مظلم في القصر بينما الردهة الكبرى تبدو على المسرح تستعد للوليمة بالاضواء والثريات والزهور . والعبيد والوصيفات يغدون ويروحون منهمكين في صف الموائد وتزيين الارائك ونشر أرج المسك والعطور)

[خلف الباب المظلم تبدو هيلانة والقائد المصري حوريس يتناجيان .]

هيلانة : . . . . وهجركَ بات يضنيني . . !

حوريس : وكيف يطيب لي حبٌ ومصر تكاد تحترقُ ؟ !
لأُقسم لم أذق غمضاً وقلبي كاد ينمزق . .
دخيلٌ بات محتكماً

هيلانه : أتهذي ؟ .

حوريس (بغضب) : فذلك الخرقُ

يدوس ابن روما حمى قصرنا وينهي ويأمر كالحاكمِ
هنا عرش مصرٍ هنا قُدسها ونحن الحماة من الآثم ...

هيلانه : أتُعلن حقداً على ملكتي ؟ !

حوريس : بل العيش نأباه في ذلّةٍ
ولا بدمن محو هذا الشنار !

هيلانة : إلـهَ السماء . (يسمعان وقع اقدام)

---

(١) انظر مقتطفي يناير وديسمبر السابقين

حوريس: حذارِ ... اصمتي !

(ثم يخرج قنينة بها سم)

خذي هـذا وصبيِّه هنا الليلة في كأسهْ
فلولا حبك الطاغي نزوتُ بذا ... على رأسه

(مشيراً الى سيفه)

هيلانة (بفزع) : جُننْـت..

حوريس : (بغضب) إذن سأصرعه بسيفي .. ولتكنْ روحي
فداء العرش والأوطـان (يهم بالذهاب)

هيلانة (بتوسل) : لا .. بل هاته ... ويحي !

(تتناول منه القنينة) ثم يغلق الباب

(في اردهة الكبرى احدى الخادمات) :

سنسمع شدو ملاكِ السماء اذا ما ترنَّم في قُدسِهِ
وأرسل من مبدعات الفنون شراب النفوس .. طِلا كأسهِ

أحد الخدم : وننظر رقص ربيع العذارى إذا مِسن كالبان أو آسهِ
فتون النفوس فتون العيون وبهجة قلبِ

جارية سوداء متنهدة بحرارة : صدى حسّهِ ... !

جارية بيضاء بتهكم : شجيٌ كالعاشقين ؟ .. من يا تُرى .
يكون الحبيب؟ صِف شكلَهُ

تعشّق فيك انبلاج الصباح
وغصناً تثنّى ..

أُخرى بيضاء بسخرية : —   صَبي ظلّهُ ..!!

(الجميع يضحكون)

الجارية السوداء :

ظننتُم نوازع حَرّ الجوى   صدى اللون والمنظر الفاتنِ
وما الحسن حيناً سوى خدعة   زها الهكل .. والسُّم في الباطن

(مشيرة الى البيضاء)

اذا القلب لم يرع وِدَّ العهود   فأنتُنَّ من حمإٍ شائن
أديمُ الفؤاد اذا ما صفا   حوى الحُسن ..

خادم قزم صائحاً بسخرية   في ليلهِ الداجن !؟

(الجميع يضحكون)

(يدخل فجأة رئيس الخدم وقد سمع صوت الخادم القزم فيصكّه بشدة على وجهه فيبتسم هذا ويأتي بحركة يضحك لها الجميع ويقابله الرئيس بالسباب ثم يخرج)

أحد الخدم لزميله همسا :

أحسُّ الوخز من ألَمِ   أيُضرب ثم يبتهجُ !؟
زميله همساً : — وماذا يفعل المسكينُ   هل تُجدي له الحجج ؟
وهذي عُصبة الحكّام   رَعْيُ الظلم تنتهج ..

* * *

اذا هبّ مضطهدٌ صارخاً   ينادون بالويل للثائرِ
وباسم العدالة واسم النظام   تُسلّ الحياة

الأول متهكماً : —   من الفاجر !!

باب الأخبار العلمية

البروتينات المصنوعة

محاكاة العمل السحري الذي تقوم به الطبيعة لانماء الكائنات الحية

جاء في كتاب « ما بعد غد » وهو السفر العلمي النفيس ، الذي طلب اليّ الأستاذ فؤاد صرُّوف ترجمة بعض فصوله فنشرت تباعاً في أجزاء المقتطف من يونيو سنة ١٩٢٨ ، قول مؤلفه السر فيليب جيبس . « ومن الممكن حيال تضاؤل غلات العالم وعجزها عن سد عوز الناس من القوت أن يوفى هذا النقص من الأطعمة الصناعية التي تركب في مصانع الكيمياء » وكتبت في نوفمبر سنة ١٩٣٨ وديسمبر سنة ١٩٣٩ مقالين مستفيضين في الأغذية الكيميائية وقلت في صفحة ٥٥٧ بمقتطف ديسمبر سنة ١٩٣٩ « يؤلف غذاء الانسان من ثلاثة عناصر أساسية هي الشحم والكربوهيدرات والبروتينات . وتستخرج الشحوم ، كالنباتين وأمثاله ، من الزيت النباتي. * أما المواد الكربوهيدراتية مثل النشا والسكر ، فصنعها من أصعب الأمور *(١) ومع ذلك فقد أعلن أستاذ بريطاني في جامعة ليفربول ، منذ بضع سنوات ، شيئاً أدهش الدوائر العلمية ، هو استطاعته تركيب الكربوهيدرات من الحامض الكربونيك « وهو الغاز الذي يتولد من احتراق الكربون » ومن الملح المعدني المعروف باسم نيترات البوتسيوم والماء . وذلك أنه عالج تلك المواد المجردة ، بالأشعة التي فوق البنفسجية فأتيح له أولاً انتاج مادة سكرية أشبه بالجلوكوز « سكر العنب الطبيعي » ثم أردفها بغيرها من المواد السكرية والنشوية فأضحى صنع المواد الهيدروكربونية ، بالوسائل الكيميائية من الأعمال الميسورة . ولم تبق بعد ذلك إلاّ عقبة واحدة كأداء

---

(١) استدراك يؤسفني أن هذه الجملة قد وقع فيها خطأ مطبعي عند نشرها في مكانها بالسطر السابع من صفحة ٥٥٧ بمقتطف ديسمبر سنة ١٩٣٩ حيث طبعت هكذا : « أما المواد الكربوهيدرات مثل النشا والسكر فصنعها من الشحم من أصعب الامور » وصوابها هو ما أثبته في بدء هذا المقال بين تينك النجمتين *

هي (البروتينات) لأن تركيبها من أعوص الأعمال الكيميائية وأروعها ، ولما يظفر بها امرؤ . بيد أن العلماء المتقدمين قد جزءوا البروتين ابتغاء الوقوف على كنهه فعبدوا الطريق لكل مقدام يستطيع غداً جمع البروتين في أنابيب الاختبار . ويقوم العلماء أيضاً في مدينة لوس أنجيليز بتجارب يتوخون بها إنتاج مواد ثمينة تكاد تصل بهم الى كشف سرّ الحياة . وعلاقة تلك المواد النفيسة بالبروتينات البشرية ، مثل علاقة الدقيق بالخبز . ونعني بها الأحماض الأمينية وهي اللبنات التي تبنى بها البروتينات . وقصارى القول إن البروتينات نفسها هي المكوّنة للمادة الأساسية في الجلد والشعر والدم والعضلات أي إنها المادة المصنوعة منها ، الكائنات البشرية . » هذا ما توخيت اقتباسه من هاتيك المباحث تمهيداً لما سأزفه الى القراء فيما يلي :—

لقد ظفر علم المباحث الكيميائية ظفراً رائعاً ، سوف يعود على الصناعة وعلم الحياة بمنافع خطيرة الشأن . ونعني به « محاكاة العمل السحري الذي تقوم به الطبيعة لخلق المواد الطبيعية المركبة الضرورية للحياة » وهي البروتينات — تلك الأمنية التي طالما طمح إلى تركيبها العلماء وبذلوا في سبيلها قصارى جهودهم فعادوا بخفي حنين . ومابرح أعلم علماء معاهد المباحث العلمية في أمريكا وغيرها عاجزين عن إدراك معضلة البروتين التي هي معجزة الحياة التي تتكرر كل يوم أمام عيونهم ممثلة في وظائف النباتات والحيوانات كافة . فالنباتات جميعها تصنع بروتيناتها (المواد الزلالية في الكائنات الحية ، وتؤلف من عناصر الهيدروجين والأكسيجين والنيتروجين والفحم والكبريت ، وهي المواد الغذائية الأولية في الخلايا الحيّة وتسمى أيضاً البروتيدات)

وقلت في كتابي (الصناعات والصناع) في باب الفلاح « إن أعظم منتج لقوت جميع المخلوقات ، خلا أسماك البحر والنهر — التربة — وهي الطبقة السطحية من الأرض التي عليها نعيش . أما الطيور فتتغذى بالبراعم أو البذور أو الأثمار أو الحشرات . وهذه الحشرات أيضاً تتغذى بأجزاء من النباتات والحيوانات ، إما ضارية « متوحشة » تفترس غيرها من الحيوانات الضعيفة ، وإما مستأنسة نباتية تتغذى بالنباتات . وهاتيك الحيوانات التي تغتالها الضواري ، تتغذى بالنباتات أيضاً . أما الانسان (وهو سيد جميع المخلوقات) فيتغذى بالنباتات والحيوانات كليهما . فالتربة إذن مصدر تغذيتنا جميعاً » .

والحيوانات تهضم البروتينات هضماً تامًا فتتحول في أبدانها « جزيئات » أصغر من البروتينات ، هي المعروفة بالأحماض الأمينية . ثم تعيد توحيد هذه الأجزاء توحيداً من شأنه جعلها تعود الى مميزاتها

البروتينية الخاصة - ونقصد بها ميوزين (١) العضلات أو فيبروين الحرير أو كيراتين الصوف، والقرون والريش والشعر.

وقد أتيح للكيميائيين تمزيق البروتينات تمزيقاً دقيقاً، فتبينت لهم بصعوبة، الأحماض الأمينية، في حطامه. فكان مثلهم في ذلك، مثل صبي تناول ساعة جيب نفيسة، فشرع يعبث بها ويفكك أجزاءها. ثم حاول تركيبها واعادتها الى أصلها فأخفق.

ومن أغرب الأمور وأشدها تعقيداً أن يقصد أحد العلماء مثلاً الى معمله الكيميائي، واثقاً كل الوثوق أن الأحماض الأمينية التي تستخرج من الزلال الموجود في مح البيض، الذي تناوله في فطوره، قد يعوضه عما يندثر من أنسجة جسمه، ومع ذلك فلو استطاع مزج هاتيك العناصر بعضها ببعض في أوعية معمله الكيميائي لما تمكن من تركيبها كما ينبغي.

وحيال ذلك الفشل المستمر، الذي مُني به علماء الأحقاب الغابرة، عدلوا على مضض، عن مواصلة مباحثهم في هذا الموضوع العسير معتقدين اعتقاداً راسخاً، فحواه أن الروح البشرية هي التي تقوم بهذا العمل الغامض في الكائنات الحيّة. ولكن منذ أكثر من قرن من الزمان، قد وُفّق العلماء لغزو «منطقة الروح» غزواً ما فتىء يستفحل من حين الى آخر عن طريق التركيب الكيميائي.

وفي الكتب المدرسية الحالية الخاصّة بالكيمياء العضوية، جداول تحتوي على ألوف من المركبات التي كانت في سالف العصور محسوبة من منتجات الكائنات الحيّة لاغير، فغدا صنعها من المواد غير الحية أمراً ميسوراً. فالسكر بأنواعه والفيتامينات والكحول أصبحت من المواد المألوفة لدى علماء الكيمياء الصناعية وشأنها في ذلك شأن الزيت المعدني والفحم الحجري (٢).

ومن بواعث اغتباطي أني سايرت هذه المباحث الكيميائية من أوائل سنة ١٩٢٩ فترجمت (بناءً على طلب حضرة الأستاذ فؤاد صرّوف الرئيس الأسبق لتحرير هذه المجلة) مقالاً ضافياً نشر في مقتطف مارس سنة ١٩٢٩ بعنوان (فحم حجري من الكرنب)

---

(١) الميوزين — هو بروتيد العضلات، والفيبروين أو الفيبرورين، مادة زلالية ومنها يتركب ايضاً نسيج العنكبوت، والكيراتين أو القيراطين — هو أساس النسيج القرني والشعر والاظفار والريش

(٢) اخترع فردريك كارل رودلف برجيوس العالم الالماني الكيميائي الذي ولد سنة ١٨٨٤ وصار من أعلم علماء أوربا في الكيمياء واشتهر بغيرته على الصناعات، وسائل تحويل الفحم الحجري زيتاً معدنياً والخشب سكراً. وقد منح سنة ١٩٣١ جائزة نوبل لنبوغه في علم الكيمياء. هذا وا
أوضحت مذهب برجيوس في باب الاخبار العلمية في مقتطف مايو سنة ١٩٤٣

جاء فيه أن الدكتور برجيوس قد طفر طفرة تخطى بها عصوراً طويلة إذ أتيح له في مدى ٢٤ ساعة فقط انتاج مادة لا غنى للناس عنها . مادة تقضي الطبيعة في خلقها ٢٤٠٠ قرن — فأصبح هذا المخترع وفي وسعه تحدي الطبيعة في نهار وليلة . وذلك باختراعه الذي سيفضي حتماً الى منع كارثة عامة تقع عند نفاد الوقود من العالم ، وهي المجاعة الوقودية التي ما فتىء العالم مهدداً بها في مستقبله . وقد أذيع هذا النبأ المدهش في خطبة ألقاها المخترع نفسه في المؤتمر الدولي للفحم الحجري في أوائل تلك السنة ، وذلك في نادي معهد كارنيجي الفني بمدينة بتسبرج الأمريكية حيث تناول أحد عشر رطلاً من مادة السليولوز ، وهي المادة الخشبية في النباتات جميعها ، فمزجها مزجاً تامًّا بالماء ثم وضع المزيج في وعاء محكم الاغلاق ، حتى لا يصل إليه الهواء ثم سخنه الى درجة ٦٤٠ بمقياس فارنهيت . وبعدئذ وضع الوعاء في رصاص مصهور حيث ترك أربعاً وعشرين ساعة، وكانت محتوياته تطبخ بحرارة الرصاص ثم قطع تلك الحرارة الهائلة عن المزيج وجعل يطلق الغاز الذي تولد في الوعاء وتراكم في أثناء الطبخ ، وترك السائل حتى برد وتجمد فكان الناتج أحد عشر رطلاً من الفحم الحجري الصناعي ! فدهش العلماء جميعاً الذين شهدوا ذلك المؤتمر الدولي الثاني الخاص بالفحم الحجري اللين . وقد أذاع في المؤتمر نفسه الدكتور كارل كروتش مدير نقابة معامل الأصباغ الألمانية نبأ لفت أنظار مندوبي الدول ، في ذلك المؤتمر الحافل ، بأن وصف طريقة لصنع البنزين « غازولين » من الفحم الحجري اللين ، وقرر أنه في سنة ١٩٢٨ كان الناتج من البنزين الصناعي في مصنع النقابة بمدينة ليونا بالمانيا ٧٠٠٠٠ طن وتوقع ان الناتج في سنة ١٩٢٩ سوف يبلغ ٢٥٠ر٠٠٠ طن الخ »

فاذا كان التركيب الكيميائي لم يتناول البروتينات قبلاً فان علماء الكيمياء العصريين يعللون هذا العجز بعلة واحدة هي كون جزيئات البروتينات أضخم من سواها وأشد تعقيداً بكثير من غيرها . وعند ما يتيسر الوصول الى الوسيلة القويمة اللازمة لتأليفها ، يزول كل مانع يمنع تركيبها.

وقد ثبت هذا المذهب منذ بضعة أشهر وذلك باعلان صدر من معهد المباحث العلمية الذي يديره في جامعة هارفرد الدكتور روبرت ب . ودوارد ، وهو عالم كيميائي شاب ، لم يجاوز الثلاثين من عمره اشتهر منذ ثلاث سنين باشتراكه في تركيب الكينا كيميائيًّا (١) جاء فيه نبأ نجاح هذا العالم لأول مرة في تركيب جزيئات تشبه صنفاً

---

(١) الكاتب — سأصف هذا الاختراع في ختام هذا المقال

من أصناف البروتينات الطبيعية تمام الشبه.

وتذرّع ودوارد الى بغيته، كما كان الخبراء يتوقعون، بوسيلة كيميائية معروفة هي ضم الجزيئات الصغيرة المتشابهة بعضها الى بعض ليؤلف منها سلسلة جزيئات كبيرة. وكانت هذه الطريقة قد استعملت من قبل استعمالاً تجاريًّا لتحويل الغاز الى بنزين ولصنع النيلون والمطاط الصناعي (١) و (٢).

وكان شذوذ ودوارد عن الذين سبقوه في هذا الميدان مقصوراً على تمكنه من تطبيق القاعدة المذكورة آنفاً على الاحماض الامينية العصبية. وأساس القاعدة المرعية حالياً هي، كون البروتينات مؤلفة من اتحاد الحوامض الامينية بعضها مع بعض بوساطة مشابك كيميائية، وفي كلٍّ منها، ذرة كربونية في طرف جزيء من جزيئات الحامض الاميني متصلة بذرة نيتروجين في الجزيء الذي يليه وقد سار ودوارد على هذا النمط فأفلح.

ومنذ أربعين سنة نجح أستاذ من أساتذة مباحث البروتينات، هو الدكتور إميل فيشر. وذلك في صنع سلسلة مكوّنة من ١٨ وحدة من الاحماض الامينية على حين أن البروتينات الطبيعية تؤلف من سلاسل يحتوي على عدد يتفاوت بين مائة وعشرات الألوف من الوحدات، ولذلك اخترع ودوارد الوسيلة التي تكفل له نمو السلاسل الى الحجم الكامل، إذ تكشفت له مجموعة من الاحماض الامينية، متى أضيفت وحدة الى سلسلتها أحدثت تفاعلاً كيميائيًّا من شأنه توليد مركز جديد فعال في طرفها غير الموصول، وذلك لأجل اتصال آخر. وبهذه الطريقة أنمى سلسلة ضخمة من الجزيئات تؤلف من ١٠٠٠٠ وحدة من وحدات الاحماض الامينية كأنها مشابك الورق التي تضم عدداً جمًّا من الصحائف، لكي تكوّن انسجة ذات أثقال جزيئية تعادل ذرة الهيدروجين ملايين المرات.

وتتميز المادة التي تنتج بهذه الوسيلة، بكونها ذات تركيب كيميائي كالحرير الطبيعي فاذا تناولت قليلاً من محلولها وملأت به محقنة من المحاقن المستعملة للحقن تحت الجلد فأفرغتها، فلا يلبث ذلك المحلول أن يتجمد فيصير كخيط الحرير الطبيعي.

وقد ورد في التعقيب الذي عقّب به عمداء جامعة هارفرد، على البلاغ الفني التحفظي الخاص باختراع ودوارد هذا، قولهم: « إن هذه الطريقة ستحقق آمالاً صناعية، للحصول على حرير طبيعي، من غير دود

---

(١) تصنع أصناف المطاط الصناعي جميعها من الكحول أو النفط وهي من العجائن الكيميائية

(٢) راجع مقالنا في باب الاخبار العلمية بمقتطف يوليو سنة ١٩٤٢ على المطاط من البطاطس والفحم الحجري، ثم مقتطف أغسطس ١٩٤٤ حيث تجد مقالا في باب الاخبار العلمية على انتاج الفحم الحجري من الحقول لا من المناجم

القز، ولتوليد صوف طبيعي، من دون اجتزازه من جزات الغنم، وفراء طبيعية بلا سلخها عن ظهور حيواناتها المكتسية بها.

وجرّب ودوارد هذه المادة الصناعية التي كوّنها بالتأليف الكيميائي عدة تجارب لم تجرؤ دودة القز على إتيانها قط. إذ تناول بعضاً من محلولها فصبه على سطح مسطح، فما عتمّ أن تجمد في مكانه فكشطه فاذا هو غشاءٌ شفاف من العجائن الكيميائية. وكان اتساعه يكاد يبلغ مساحة هذه الصفحة من المقتطف، وإن كانت ثخانته تقل عن جزء من ألف من عقدة الأصبع. فثبت بهذه التجربة أنه قد تمّ افتتاح دائرة جديدة للمواد المؤلفة بالكيمياء. وهذه ستفضي الى توسيع المجال الذي تشغله حالياً أنواع الغراء والعجائن الكيميائية التي تستخرج من البروتينات الطبيعية التي تستخلص من الهلام ومخيض اللبن.

وفضلاً عن هذه الأعمال الصناعية، التي لما تقدر فوائدها الاقتصادية حق قدرها، قد ظهر أثر خطير الشأن في هذا الموضوع. ونعني به مجالاً رحباً تمّ فتحه لترغيب العلماء في الاستطلاع والتعمق في المباحث الخاصة بأسرار الحياة والنمو والوراثة والمرض.

ومن المدهش ان النوع الهمري من البروتين الذي يتألف منه الحرير والصوف الصناعيان، هو من أبسط أصنافه. أما البروتينات الشديدة التعقيد المؤلفة من شتى الأحماض الأميلية فتعدُّ دليلاً لدراسة الخلايا الحيّة. وعكف ودوارد وجماعته على التوغل في مملكة علم الحياة. وما برحوا يهدفون الى بعض أهداف عملية سامية. وهم مشغوفون بالمواد المماثلة للبروتين وهي التي تفرزها أنواع معينة من البكتريا الأرضية فتستعمل طبيًّا لمكافحة البكتريا المرضية. ولاستخراج هاتيك المواد، ومنها الجراميسيدين والباكيتراسين، لم ترَ الشركات المنتجة لها، مناصاً من زرع مستعمرات من البكتيريا، تشبهاً براعي الغنم الذي يهدف الى انماء الصوف فلا يجد مناصاً من تربية الغنم.

وقد أنجز ودوارد من قبل تطبيق طريقته هذه الجديدة، على تأليف عقاقير مركبة تشبه البروتين الطبيعي (بيد أن تأثيرها الطبي لم يتقرر بعد). ويرى العلميون أن انتاج هذه العقاقير، وسواها بالتأليف الكيميائي، سيبلغ منزلة كالتي بلغها البنيسيلين.

ومما هو خليق بالذكر، من سجايا هذا المخترع الشاب، أنه قد أدهش العالم الكيميائي عندما التحق بالمعهد العلمي الفني في مساتشوستز، وكان حينئذٍ في السادسة عشرة من العمر، عقب تخرجه في المدرسة العليا (في كوينسي) بضواحي بوسطن حيث تلقى في خلال دراسته بتلك الكلية، معلومات في علم الكيمياء، هي كل التي استوعبها أساتذته في ذلك الفرع. فآثرت ادارة ذلك

المعهد حياله اختصار اجراءاتها الرسمية العقيمة المفروضة على كل طالب جديد يلحق بها ، إذ سمحت له بأن يدرس دراسة مستقلة ، كل ما تصبو إليه نفسه ؛ ويمارس من المباحث العلمية ما يطمح إليه . وحالما أتمّ دراسته في ثلاث سنوات ، منحته ادارة الكلية درجته العلمية ، وكافأته بألف ريال بصفة كونه عضو شرف فيها ، على أن ينزل عن جزء من مكافأة عمله ، نظير نفقات تعليمه . وبعد قضائه سنة أخرى في دراسته ، بلغ ، العشرين من عمره وظفر بدبلوم الطب ، فجعل يباشر مباحثه المستوفاة الشروط في جامعة هارفرد . وقد أصبح هذا الأستاذ العبقري في الثلاثين من العمر . ومع ذلك فانك إذا رأيته ، خلته خريجاً من خريجي الجامعة أو الكلية إذ هو لا يفوق سنًّا الكثير منهم . ومع ما يقترن بسيرته من بواعث العجب ، فلا تلوح عليه مخايل العبقرية التي ينزع ذووها إلى الاستبداد بآرائهم ، إذ هو رجل ذو شعر أصفر ، متوسط القامة ، مولع بلعب الكرة والمضرب ، مع طلبة الجامعة . وهم يلقبونه بلقب « بوب » تحبباً اليه . وهو ميّال للفاكاهات ومغرم بتدخين عدد جم من السجائر . ومن دأبه أنه يحمل بين يديه إبريقاً من القهوة ، الى معمله الكيميائي ، ليتناول منه ما يكفيه منها في أثناء أعماله الشاقة هناك سحابة يومه . ومن عاداته الميل الى توثيق صلاته برجال الصناعة . ولا غرو فقد كان من المساهمين في اختراع الكينا الصناعية وذلك بالاتحاد مع شركة بولارويد حيث تعمل زوجته في هذه الشركة نفسها ، بصفة كونها مستشارة فنية لها . وهي من خريجات كلية سميث . ومما ينبغي اثباته ههنا أن ودوارد أتم تأليف البروتين بمعاونة زميل كيميائي من زملائه هو ث .. هـ . سكرام وذلك في معهد كونفرس للمباحث العلمية في جامعة هارفرد . وهو مكان يبدو لناظره شبيهاً بأي معمل كيميائي صغير في أية مدرسة عليا أو كلية . وقد اشتهر سكرام بكونه يحافظ على تنسيق مكتبه وأناقته ، بينما زميله ودوارد لا يحفل باضطراب يسير ، ينتاب مكتبه ، ما دامت هاتيك المشابك الخاصة بالأحماض الأمينية قائمة في الأصناف اللائقة بها من الجزيئات .

﴿الكينا الكيميائية﴾ ومما لا شك فيه أن الكيمياء الصناعية تزود العالم بفرص عظيمة لاختراع أدوية جديدة . ففي خلال الحرب العالمية الثانية مست الحاجة الى اكتشاف عوض صالح يقوم مقام الكينا الطبيعية ، أو الى تركيب كينا كيميائية . ولا غرو فلولا الكينا ما استطاع جندي واحد من جنود الدول المتحالفة أن يطأ الأقطار الحارة ، كما لو كان حافياً ، خشية على حياته من الملاريا المتفشية هناك ، وحتى في أيام السلم ، قد يزيد المطلوب من الكينا الطبيعية للعلاج ، على محصولاتها ، مع العلم

بأن استعمار تلك الأصقاع إنمـا يقوم على المعالجة بالكينا. وذلك لأن الملاريا من أشد الأوبئة فتكاً ببعض أقطار العـالم حيث تضعف الملايين من سكانها وتقضي على مئات الألوف منهم. على حين أن وقايتهم ميسورة باستعمال مقادير كبيرة من أي دواء مضاد للملاريا. غير أن هـذه المقادير لا تتوافر في المحصولات الطبيعية. ومن ثمة تستطيع الكينا الكيميائية سد النقص الذي تعجز عنه موارد الكينا الطبيعية.

وفي يونيو سنة ١٩٤٤ أذيع اعلان من المعامل الكيميائية لشركة بولارويد الأمريكية، كان من الأهمية بأسمى مكان. فحواه أن الطبيبين الدكتور روبرت ب. ودوارد والدكتور وليم إ. دورينج، قد تمكنا من صنع كينا بالتأليف الكيميائي،
أ بهذه الوسيلة معضلة طالما أعجزت علماء
اء، منذ زهاء قرن من الزمان. وقيل
صف هذا الاختراع ما يأتي: —
كن الوقت بعد للتكهن بمدى
ختراع الرائع» وكانت هذه
نادرة الوجود، غالية الثمن
الكينا الطبيعية التي تستخرج
ر الشينكونا. ولذلك كان المرضى
ن استعمال بديلها في علاج الملاريا
ين والبلازموكين. وقيل في تلك
إن القرائن جميعهـا تدل على أن
ف تصنع يوماً ما في المصانع كغيرها من عشرات الألوف من الأدوية المركبة. وليس هذا عسيراً ما دمنا نتذكر تاريخ النيلة والفانيليا المصنوعتين وربوات العقاقير (التي تستخرج من قطران الفحم الحجري) والعطور والروائح والأصبـاغ والمواد المجليـة للصور الفوتوغرافية والمفرقعات. وهذه جميعها كانت في بدء اختراعها محسوبة من الطرف الغالية ثم ما لبثت أن زخرت بها أسواق العالم فنافست المنتجات الطبيعية ثم بزّتها.

والشيء بالشيء يذكر، فقد جاء في كتابنا (الصناعات والصنـاع) في باب منتجات الفحم الحجري ما يأتي: —

«قطران الفحم الحجري مادة سوداء صمغية تتخلف من عملية استخراج غاز الاستصباح من الفحم الحجري. وهي مزيج من مواد عضوية مركبة يتاح للكيميائي أن يستخلص منها أية مادة يرغب فيها. فمن مادة مطهرة الى مادة مزيلة لبقع الأوضار، ومن صبغة الى رائحة عطرية، ومن عقاقير طبية الى مفرقعات».

وفي سنة ١٨٥٥ قام ستركر الكيميائي الألماني بتحليل الكينا الطبيعية فتبين له أن جزيئها مؤلف من ٢٤ ذرة من الهيدروجين و ٢٠ ذرة من الكربون وذرتين من الأوكسجين وذرتين من النيتروجين. ثم حاول غيره من العلماء تركيبها على ذلك المنوال فباءوا بالفشل. وكان أولهم وليم

هنري بركين . وكانت علة فشلهم أن علم الكيمياء لم يكن قد بلغ في سنة ١٨٥٦ ما وصل اليه في هذه الآونة من التقدم . ويعزى عجز بركين الى كونه استطاع التوفيق بين تلك الذرات الصالحة لتركيب الكينا ولكنه لم ينل مأربه ، وان كان قد ظفر باختراع صبغة اللون البنفسجي الزاهي « موف » وهي أول صبغة استخرجت من قطران الفحم الحجري . ولذلك صار يعد مؤسس الصناعة الكيميائية العظيمة لقطران الفحم الحجري . ومن بواعث الأسف أن اشتهار طريقة التركيب الكيميائي للكينا لم يكن مانعاً للاخفاق المتواصل في صنعها فيما بعد . واذا شئنا تقدير اختراع ودوارد وزميله دورنج حق قدره ، فلا بد لنا من ادراك حقيقة كون خواص الجزيء العضوي تتوقف على تركيبه . وقد تكون الجزيئات مشابهة بعضها بعضاً من كل الوجوه ولكنك عندما تنسق ذراتها في نماذج مختلفة ، تتفاوت خواصها بعضها عن بعض ، وان استحال كيميائياً على الناظر اليها تمييز بعضها من بعض . وتسمى هذه الجزيئات بالاجسام الأسواء أو السواسية المتشابهة التركيب أي أن تركيبها الجزيئي متساوٍ . فأضحت الخطة المثلى لحل هذه المعضلة هي ، اختراع جزيء تنسق فيه الذرات تنسيقاً من شأنه جعل تركيبه يكتسب الخواص المنشودة .

وكان هذا من الصعوبة عمليًا بأصعب مكان على النقيض من مظهره . لأن هذا لا يتيسر لطالبه بوساطة رسم يرسم على ورق حساس لا غير ، بل لا مندوحة للكيميائي ، عن تركيب جزيئات يرجح نجاحها ، فيصنع واحدة فواحدة ثم يجربها كلها وربما يضطر إلى تركيب مائة منها أو ألف او أكثر ، قبل بلوغه مراده في آخر أمره .

فان كان ودوارد ودورنج قد نجحا في اختراعهما هذا في أربعة عشر شهراً لا غير فذلك لأنهما لم يضطرا إلى قضاء وقتهما في سبيل الوقوف على وسيلة تنسيق الذرات المؤلفة لجزيء الكينا ، لأن هذا التنسيق كان قد اكتشفه منذ سنة ١٩٠٨ عالمان المانيان كيميائيان ، هما ريب وكوينجس ، فلم يبق إذن من مصاعب هذه المعضلة الا محاكاة تنسيقها كأصلها ، وهذا أمر ليس هيناً في حد ذاته ، اذا حسبنا عشرات العلماء ال خانت آمالهم من قبل في حله .

ان بعض التجارب التي قا ودورنج قد أسفرت عن كل الغيار للجزيئات الطبيعي نافع . والدليل على ذلك انهما الكينا تماماً يسمى الجزيء الس ثم فلقا هذا الجزيء النظري ف مصنوعة بحتة ليس لها نظير نافعة لعلاج الملاريا »

عوض

مكتبة المقتطف

١ — شرق وغرب

للاستاذ علي محمود طه — ١٨١ صفحة من القطع المتوسط ، محلاة بصور من ريشة الرسامين الاستاذين عبد العزيز خالد درويش ومحمد سليم شوقي — مطبعة شركة فن الطباعة

في الوقت الذي تبلغ غضبة الخير على قوى الشر مبلغ الثورة التي يتبدد أمام صوتها المدوّي عواء الذئاب يعلو صوت الشعر من قيثارة عذبة الرنين ليسجل للشرق أحداثه غناءً ، وليحدو أبناءه في جهادهم خطوة فخطوة في كل ناحية هبّ فيها صوت مناضل عن حقه ... في هذا الوقت الحاسم يصدر ديوان صديق الشاعر الأستاذ علي محمود طه « شرق وغرب » بعد أن جاب « الملاّح » البحار .

فأما الجانب الشرقي فهو الصوت الموقظ ... الصوت الذي أخذ من نداء الحق قوته ومن هتاف الحرية جلاءه ومن روعة الايمان جماله ليهيب بأبناء الشرق قائلاً :

دعوها مُنى واتركوه خيالا   فما يعرف الحقُّ إلاّ النضالا
بني الشرق ماذا وراء الوعودِ   نطلُّ يميناً ونرنو شمالا
وما حكمة الصمت في عالمٍ   تضج المطامع فيه اقتتالا

وليصرخ في وجه الغرب بعد أن بلا سياسته وتكشف له خداعه :

سمعنا ، خدعنا ، وانتبهنا فحسبنا   لقد ملّت الأسماع قيثارك البالي

ثم ينبه الشرق مرة أخرى :

يا شرق ، يا شرق لا تخدعك دعوتهم   واقبض يداً ، فحديث الحق أوهام
أكان غير عيون الزيت دافقة   من قلبك الغض يجرين سجّام
وكان غير أنابيب يحوط بها   ضلوع صدرك قهار وظلاّم
قد قسموك مطارات وما عملوا   إلاّ لحرب لها في الكون إضرام

وليتردَّد بين جنبات الوادي ينادي :

أخي ! وكلانا في الأسار مكبَّل   نجر على الأشواك ثقل حديد
إذا لم تحررنا من الضيم وحدة   ذهبنا بشمل في الحياة بديد

وعلى هذا الوتر وبهذه الروح وفي هذا النفس القوي والديباجة المشرقة يهتف الشاعر الذي طالما نعم قراؤه بالنغم الحالم الوادع في قصائد يحيي بها فلسطين واندونيسيا ومصر، ويستقبل بها المفتي والقاوقجي وعبد الكريم ويذكر البطولة في شهداء هذه الأوطان جميعاً.

على أن شاعرنا لم يشأ أن يحرم عرائس الشعر الذي عودهنَّ الطواف في عالمهنَّ البعيد عن ضجيج الحياة بأطماعها وعجيج المعترك الانساني برغباته الغشوم وأحقاده، لم يشأ أن يحرمهنَّ الغناء من أجلهنَّ، وهنَّ اللائي لا يعرفنَ شرقاً ولا غرباً، لأنهنَّ فوق البشرية بما يدعون اليه في عالمهنَّ الذي لا يدين إلاَّ بالحب ولا يتردد في سمائه غير أطياف الحب فهو يردد في الجانب الغربي من ديوانه أصداء ما بعثت عرائس الشعر في روحه وفي قلبه من ذكريات بقيت له من رحلة في ربوع الغرب فهو يهتف :

عرائس الشعر قد عاد الحبيب، وفي   عينيه سهد وتعذيب واضناء
آبَ المغامر من دنيا متاعبه   أما له راحة منها وإغفاء ؟

وليقف في ليلة قمراء يتأمل :

البحر والحور فيه سابحة   رؤى بها بات يحلم القمر
ليبدع في تصوير السابحات وقد استسلمنَ لضوء القمر فوق صدر البحر
أقسمنَ لا ينتحينَ شاطئه   وإن ترامى بمائه الشرر
حتى يُرى وهو فضة ذهب   تمازج الليل فيه والسحر

وإذا كانت « أصوات الشرق » قد طغت في هذا الديوان على « أصداء الغرب » فإن هذه القلَّة قد زخرت بصور فتّانة في الوصف كقصائد « راكبة الدراجة » و « الوردة الصفراء » و « أندلسية » وفي التعبير والتأمل كقصائد « ألحان وأشعار » و « فلسفة وخيال » و « على حاجز السفينة » وهي صور جمالها في وحدتها، وكلها من هذا الينبوع الفياض

٢ — حديث الصومعة

للمرحوم ابراهيم الدباغ — ١٤٨ صفحة من القطع الوسط — نشرته مكتبة الطاهر اخوان في يافا (فلسطين)

منذ عام طلب إليَّ إلقاء كلمة عن الشاعر الفلسطيني المرحوم ابراهيم الدباغ بمناسبة ذكرى العام الأول لوفاته. وكان مما قلته يومذاك أن هذا الشاعر كان أسير نزعتين قويتين فالبيئة

على عصره لا ذنب له في جنايتهما : نزعة التقليد فهو ما يزال يحاكي الشعراء الذين التزموا التلاعب اللفظي . ونزعة الاندماج في مجالس العظماء من ناحية أخرى كنديم مسامر لا كفنان شاعر ... وقلت إنه كان في استطاعة هـذا الشاعر وقد وُهب مادةً من السخرية لا تنضب أن يستغلها في السخرية بزمانه وبكثير من شخوص ذلك الزمان فيعطي الأدب لوناً جديداً من الفن . ولكنه لم يفعل ذلك لأنه كان كالطائر المتنقل بين أفنان الزهر فتنته الألوان وسحره الشذى عن أن ينظر الى الأشواك ، بل قل إن جيله هو الذي شغله عن ذلك .

ذكرت هذا بمناسبة الكتاب الجديد الذي صدر أخيراً متضمناً رسائل الشاعر الدباغ في الأدب والفكاهة والنقد والفلسفة وهي رسائل كان يبعث بها من مصر الى ابن أخيه في يافا الأستاذ مصطفى الدّباغ خلال عشرين سنة نشر منها ثلاث عشرة رسالة هي لون من أدبه النثريّ انطلق فيها متخلصاً من القيود التي كان يعانيها في الشعر واستطاع إعلان رأيه لابن أخيه في كثير من نواحي الفكر في حرية وطلاقة تساعد من يدرس أدب الشاعر بعد ذلك على تقصي الكثير من معالم نفسيته ، وهي خدمة جليلة من الأستاذ مصطفى الدّباغ للتاريخ الأدبي الى جانب العناية بنشر آثار عمه . ولعله يشفع ذلك بنشر الكثير من أخبار هذا الشاعر ونوادره فهي متممة لذلك ولأنّ هذه الناحية هي أبرز نواحي الدباغ الذي كان أُنس جيل . ومن هذه النوادر يتكشف للأجيال اللاحقة دراسة هذا الشاعر أيضاً .

٣ — عاشقة الليل

للشاعرة العراقية نازك الملائكة — ١٣٩ صفحة من القطع الوسط — مطبعة الزمان في بغداد

في العراق الآن نهضة شعرية جديدة سريعة الخطى قوية الأجنحة ترتاد آفاق النفس وتتغلغل في أغوارها بعيدة عن عالم المحسوسات الذي ظل الشعر هناك الى وقت قريب يجول فيه ، وهي نهضة تبشر بأمل واسع .

ومما يدعو الى الإعجاب أن يكون باكورة هـذه النهضة الحديثة والوثبة الجريئة ديوانَ لشاعرة مشرقة الأسلوب رقيقة النغم مرهفة الحسّ متوقدة الشعور هي الآنسة نازك الملائكة ، وهي شاعرة استوت ملكتها الشاعرية ، ولا عجب ، فهي كما علمت من بيت نبغ منـه شعراء كثيرون فوالداها شاعران وأختها شاعرة وكذلك أخوها .

ولنستمع الى شاعرتنا في ثورتها على الشمس فهي تهتف لليل الذي عشقته :

الليـل ألحـان الحيـاة وشعرها ومطاف آلهـة الجمال الملهم
تهفو عليـه النفس غير حبيسة وتحلّق الأرواح فوق الأنجم

كم مرت تحت ظلامه ونجومه   فنسيت أحزان الوجود المظلم
وعلى فمي نغمٌ إلهيّ الصدى   تلقيه قافلة النجوم على فمي !

ثم تقول في نهاية هذه الثورة وختام هذا التمرُّد :

أضواؤكِ المتراقصات جميعها   يا شمس أضعف من لهيب تمرّدي
وجنون نارك لن يمزّق نغمتي   ما دام قيثاري المغرّد في يدي
فاذا غمرت الأرض فلتتذكري   إني سأخلي من ضيائك معبدي
وسأدفن الماضي الذي جللته   ليخيم الليل الجميل على غدي !

وما أجمل تصويرها لنفسها في قصيدتها « عاشقة الليل » حيث تقول :

يا ظلام الليل يا طاوي أحزان القلوب   أنظر الآن فهذا شبح بادي الشحوب
جاء يسعى تحت أستارك كالطيف الغريب   حاملاً في كفه العود يغني للغيوب
ليس يعنيه سكون الليل في وادي الكئيب
هو يا ليل . فتاة ... شهد الوادي سُراها   أقبل الليل عليها فأفاقت مقلتاها
ومضت تستقبل الوادي بألحان أساها   ليت آفاقك تدري أما تغني شفتاها
آه يا ليل !! ويا ليتك تدري ما مُناها

وفي قصيدتها « صياط وأصداء » تكشف عن حساسيتها المرهفة وتصرخ « الحس في هذا الوجود جريمة لا تغتفر » وهذا الارهاف هو الذي يثير في نفسها هذا اللون من الحزن العميق فهي كما تقول في قصيدة السفر « أبداً أحلم بالفجر فلا ألقى النهارا » على أني أدعو الشاعرة الى أن تستمع الى صدى حديثها في قصيدة « جزيرة الوحي » :

العود ، والشعر ، والأماني   شاعرتي فاصدحي وزيدي
قد ضحك العمر واستنامت   عواصف اليأس والنكود
. وانقلب اليأس بشريات   وأمنيات ... فأي عيد ... !

ان هذا الديوان أصداء روح محترقة وأنات قلب بشري يتردد فيه صدى صرخات مكبوتة فتعبر عنها صاحبته أصدق تعبير في لغة بعيدة عن لغة الشعر الملفّق لأنها لغة الشعر الحي. واني لأعتبر صاحبة هذا الشعر أبرز شاعرة عربية عرفت معنى الشاعرية وتلقت أجمل رسالاتها وأروعها

حسن كامل الصيرفي

خواطر الحياة

ديوان شعر للسيد محمد الخضر حسين

الأستاذ الجليل الشيخ السيد محمد الخضر حسين رئيس جمعية الهداية الاسلامية ، ورئيس جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا ، ورئيس تحرير مجلة لواء الاسلام ، وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، والأستاذ سابقاً بكلية أصول الدين الأزهرية ، وهو رجل في العقد السابع من عمره ، وقد شاب شيبة مباركة في سبيل القضايا العربية والاسلامية ، بارك الله له في حياته .

و « خواطر الحياة » ديوان لطيف الحجم ، يقع فيما يزيد عن مائة وسبعين صفحة ، وقد عني بنشره الأستاذ الكبير محب الدين الخطيب ، وقد تضمن الديوان ما نظم السيد الخضر من فرائد الشعر مرتباً على حروف الهجاء ، وقد علّق على الديوان بشرح لطيف وتفسير وجيز ، الأستاذ الجليل محمد علي النجار الأستاذ بكلية اللغة العربية .

ويمتاز شعر أستاذنا الخضر بميزات كثيرة ، أذكر منها قصر المقطوعات ووجازتها ، فأغلب قطعه لا تتجاوز أبياتاً تعد على أصابع اليد الواحدة .

والسر في قصر مقطوعات الشاعر أنه بطبيعته يميل الى الاختصار والإيجاز حتى في حديثه وإشاراته وحركاته ، فتكفيه اللمحة عن الكلمة ، والإشارة عن العبارة ، ويضمن الألفاظ القليلة ما طوّعه الله له من المعاني الكثيرة ، وتلك براعة لا تتيسر إلاّ للقليل . . .

ويمتاز شعره أيضاً بشرف الغرض الذي يقصده ، وكرم الغاية التي يريدها ، فاذا وقف أناس شعرهم على اللهو واللعب ، والغزل والطرب ، والتشبيب بالنساء ، وتصوير باطل الأهواء ، وقف السيد الجليل شعره على ما يشغل أذهان العالمين ، ويقلق بال النابهين ، فهو يتحدث عن محنة فلسطين وغيرها من أوطان العروبة ، ويمجّد رجالات الإسلام الأوائل ، ويشخص كثيراً من أمراضنا الاجتماعية ، ويصف لها العلاج ، ويتحدث عن الصداقة والأصدقاء ، وفضل اللغة العربية ، والانتصاف لعلم الشريعة ، والوفاء في العسر واليسر ، ويحيي مواسم الدين بأبياته الرقيقة ، ويصف مشاهداته في الحجاز والشام والمانيا وتونس ومصر ، وغير ذلك من جليل المسائل وخطير الشؤون . . .

ويمتاز أيضاً بجودة السبك وفحولة التراكيب ، ولعل هذا هو السر في أننا نشاهده

يحيي لنا في شعره كلمات كانت مهجورة أو مطمورة، فهو يستعمل مثلاً كلمة «صاعروا» بمعنى أمالوا وجوههم عن النظر إلى الناس تكبراً، وذلك في قوله:

ما لليهود استوطنوك وصاعروا   بعد الهوان خدودهم خيلاء؟!

ويستعمل كلمة «راقمة» لآلة الكتابة المخترعة حديثاً، وذلك في قوله:

فكان أن زدت في الديوان راقمة   تخط في الطرس خط البرق لو كتبا

ويستعمل كلمة «صِعاد» وهي جمع «صَعْدة» والصعدة القناة المستوية، وهو يريد الرماح في قوله:

أداروا من سلافتها رحيقاً   وهزُّوا من جوالتها صِعادا

ويستعمل كلمة «القتير» ومعناها: الشيب، في قوله:

مضى عهد الشبيبة في صفاء   ورنَّق كأسنا عهدُ القتير

ويستعمل كلمة «رابغ» بمعنى ناعم، وذلك في قوله:

تقلدتَ في صدر الحياة عزيمة   وباكرت تجني العلم والعيش رابغ

ويستعمل كلمة «حِماق» وهو جمع أحمق، في قوله:

فأشياع الضلال اليوم صالوا   بألسنة وأقوال حماق!

ويستعمل كلمة «الرتيمة» وهي خيط يعقد في الاصبع، ليتذكر به الإنسان ما يخشى نسيانه، في قوله:

هي «الرتيمة» فيما قال مبدعها   وهل يغيب السنا عن طلعة الأفق؟

وهذه الكلمة تذكرنا بقول الأول:

اذا لم تكن حاجاتنا في نفوسكم   فليس بمغن عنك عقد الرتائم!

ويستعمل كلمة «أفوكُ» بمعنى كاذب في قوله:

نزعات وسواس تخبطهم فما   لبثوا أن افترُّوا بوحي أفوك

ويستعمل كلمة «طباب» بمعنى دواء يطب به في قوله:

طباب الشرق في خطرات شهم   وجمر حماسة في القلب ذاكي!

وتلك لعمري يد مشكورة، فإن مفردات اللغة كنوز مجهولة، ولو أن كل أديب أو

شاعر جعل من همه أن يحيي لنا مجموعة من الألفاظ المهجورة التي نحتاج إليها وأشاعها بالتكرار ، لكسبت اللغة كسباً عظيماً .

ويمتاز الديوان بأنه لا يعطي قارئه معانيه عند القراءة العاجلة بل لابدّ فيه من التأني والتريث ، وصاحبه لا يتلاعب بالألفاظ ، ولا يألف المجازات البعيدة ، ولا الكنايات المستكرهة ، ولا الاستعارات المستوحشة ، وهو يؤثر الحقيقة على المجاز في كثير من الأحيان وإن كان يأتي في سهولة بالتشبيه البليغ أو التمثيل الرائع كقوله :

كأن شعاع الشمس ينساب في الثرى   ويطويَ بساطاً مده الليل أسودا
سنا حجة يسطو على قلب جاحد   فيأخذه بعد الضلال الى الهدى !

ويمتاز الديوان بشيوع أبيات الحكم والأمثال فيه ، ولا يعد هذا عجيباً من عالم جليل وقف حياته لخدمة الدين والعلم . والشيخ أحياناً يستجيب لنداء العاطفة وهتاف الوجدان وله أبيات في النسيب والهوى قليلة ولكنها جميلة ، ومنها قوله :

أتنسمت الصبا من « حاجر »   صاديَ الأينق أم شمت بروقه؟
عج بنا نشف بلقيا جيرة   ضربوا الخيم به نفساً مشوقه
وإذا ما عاقنا بطء السُّرى   عن صبوح الوصل أدركنا غبوقه
ها هنا مرتعهم ، خذ بيدي   ودع الأينق في الروض طليقه
طال بي البين الى أن أطفأت   نظرة من ساكني البان حريقه
يا بدوراً حسنها ابتز النهى   وهواها مد في القلب عروقه
عادت الأيام من هجرانكم   لي خصيماً ، بعد أن كانت صديقه
من دجى يقضيه جفني أرقاً   وضحى يلبسه الليل غسوقه
وكفى جسمي نحولاً أن نحا   لوه كالطيف خيالاً ، لا حقيقة
لم أضع للود عهداً ، أفما   حان أن يرعى الأخلاء حقوقه ؟!

وهي كما ترى نفثة مستعرة بوقدة العاطفة ولظى الوجدان ، وخاصة إذا صدرت من مثل صاحبها . والديوان في إيجاز صورة لشعر العالم الوقور البليغ . ولا شك أنه سيحتل مكانه المرموق من المكتبة العربية .

احمد الشرباصي
المدرس بالأزهر الشريف

٨٩ شهراً في المنفى

للاستاذ محمود حسني العرابي

لو أمكن صنع رجال من الفولاذ لكان على رأس هؤلاء الأستاذ محمود حسني العرابي عزيمة وصلابةً ورجولة . . . فالنضال والتحدي طبيعة في نفسه.. نضال الطغيان وتحدي أية قوة تقف في سبيل هذا النضال .. وإذا كان فريق من المجاهدين قد ضحى في جهاده بالمال وآخر بالشباب فقد ضحى الأستاذ العرابي بالاثنين معاً . فمنذ ربع قرن كان هذا المجاهد المفكر على جانب من الشباب وفير وعلى تراث من الثروة غير يسير فوضع هذا وذاك على كفه وبدأ نضاله من أجل حرية الجياع والمظلومين في وقت كان يعتبر فيه من ينادي بمثل هذه الآراء في مصر والشرق إمّا مخرف أو مجنون!.. ويكفي مصر فخراً أن أول ما ذُكر اسمها في المحافل الدولية المتطرفة كان على يد هذا المجاهد.....

لقد ظلّ وفيّاً لهذه المبادىء طيلة ربع قرن من الزمان متحملاً في سبيلها عذاباً أيسره الموت جوعاً ولا مبالغة فيما أقول : فها هو كتابه تشهد فصوله فصلاً فصلاً بل صفحاته صفحةً صفحة على سلسلة لا تنقطع من المحن والشدائد تزلزل الرواسي من الجبال ولكن يصمد أمامها قلب هذا الرجل وايمانه ! لقد ظن ان هذه الآراء والمبادىء التي اعتنقها هي المفتاح الذي به تُفك قيود المحرومين والجياع والمظلومين من أبناء قومه وأي تضحية وأي عذاب يذكر بجانب هذه الغاية السامية النبيلة ؟ ! هذه هي الحرية وهذا هو طريقها... وانه لمن عبّادها وعشّاقها الذين يستعذبون في سبيلها السجن والنفي والتشريد بعيداً عن الأهل والوطن محروماً من أبسط الحقوق التي لا تضن بها الدولة حتى على المجرمين والسفاكين من رعاياها ألا وهي اعترافها بجنسيتهم . لكأن جريمة حسني العرابي في نظرها تفوق جريمة القاتل المجرم والسفاك الأثيم ! !

ولكنه قابل كل ذلك بإيمانه الذي لا يتزعزع . ايمانه بأنه الذي يحمل الشعلة المقدسة في بلده والتي يجب أن لا يتقدم لحملها إلاّ زند فدائي . . ولكنه مع الأسف قد صدم في ايمانه وحصن جهاده الحصين حين رأى تلك المبادىء التي ظنها مفاتيح الحرية قد انقلبت

في أيدي الزعماء القائمين بها سلاسل تُكبل بها البقية الباقية من الأحرار . فوقف ينظر ساخراً ساخطاً الى هؤلاء الزعماء رائياً متوجعاً لتلك المبادىء التي قتلها منفّذوها وقد بلغ به الحنق مبلغاً شديداً حتى جهر بالعداء الشديد لهؤلاء الأغرار من الشباب الذين ينساقون كالعميان وقد خدعهم بريق تلك المبادىء التي تخفي ظلماً لم تعرفه أشنع أنواع الحكومات المستبدة في التاريخ . لقد هدمت حكومة الشيوعية في روسيا ذلك الايمان الذي لم تزعزعه صواعق الظلم ولم تنل منه زلازل الطغيان !

وفي هذا الكتاب الصورة الصادقة لهذه الحياة الفذة في فترة الجهاد والاضطهاد وهو لا يخلو من طرائف تستروح فيها النفس عبق العاطفة البهيج الشذى وفيه لمن أراد أن يعرف طرفاً من أعاجيب تصرفات القدر مع الأحياء في حياتهم الخاصة صور وصور ولمن أراد أن يرى كيف تكون الحقائق أغرب من الخيال مشاهد ومشاهد فهو هو حسني العرابي بين الناس يحمل جوعه وبؤسه وهو هو حسني العرابي أمام السلطات في مواقف تخور فيها العزائم ولكن عزيمته تعلو وتتسامق حتى ليستصغر القاهر نفسه أمام المقهور أو من ظن انه المقهور ... !

(ان الرجل الذي يسأل الرحمة أو يتقبلها من قوي رجل ضعيف لا يستحق الحياة ..)

هكذا يقول الأستاذ العرابي ولقد أضرب ستة وعشرين يوماً عن الطعام في السجن لأنهم حرموه قراءة الكتب . وصمم على الموت إلاّ أن يمنح هذا الحق وقد منحه . فالقراءة عنده أغلى من الحياة ... وانها لكذلك فلينظر شباب اليوم ..

وان النفس البشرية لمختلف أنواع البشر والطبقات مجلوة في هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة بلا أصباغ ولا أدهان بلا رياء أو نفاق ، وإنك لترى الناس تحت قلم حسني العرابي وقد عرّوا من أقنعة أوضاعهم الاجتماعية ... أنك ترى حقائق النفوس . وستبقى فصول خيبة وتعلة – ليله – سخرية القدر – فرقه الى الأبد وغيرها وغيرها قمة عليا لكتاب التراجم في اللغة العربية بل وكثير من اللغات .. ! ففي الكتاب المجاهد قدوة وللمستروح لذة وللمؤمن الصادق الايمان عبرة وأي عبرة . . .

محمد فهمي

قلب لبنان

أمين الريحاني — صفحاته ٦١٠ مطابع صادر — ريحاني ببيروت

أدّى صاحب العقل النيّر والقلم المبدع المرحوم (أمين الريحاني) للعالم العربي خدمات جُلّى بما صنّف من مؤلفات وحبّر من مقالات عرّف بها الشرق العربي الى الولايات المتحدة وانجلترا وبطريق غير مباشر إلى كل بقعة في أوربا .

وأنبه هذه المؤلفات ذكراً وأكثرها ذيوع صيت كتابه « ملوك العرب » الذي يعدّه المؤرخون سفراً خالداً أضفاه فيلسوف الفريكة على خزانة التاريخ العربي رغم ما بلا من مشقات الأسفار الى بلاد العرب وبه أماط اللثام عن رؤى وأطياف وأسرار لو لم يجلها (الأمين) ويكشف عنها الغطاء لبقيت في طيّ الكتمان ولودّعنا الحياة ونحن في جهل من جزيرة العرب وأسرار الصحراء ومرافق الجزيرة وأصقاعها المجهولة الخالية .

و (قلب لبنان) فصول خطّها فقيد العرب في وصف خمس عشرة رحلة قام بها (الأمين) الى حدود لبنان وجباله وقراه ودساكره فصوّر بها جمال لبنان وأخلاق سكانه الطيبة التي لم تُبدّل منها مدنية القرن العشرين الزائفة شيئاً ، وقد أوضح ناشر الكتاب صديقي الأستاذ البرت ريحاني هدف شقيقه الفقيد بكلمة خفيفة الظل صدّر بها الكتاب

وقد مهد الريحاني لكتابه بلمحة عن مساحة لبنان وأسمائه ولغات أهله وأشار في أول فصوله الى الباعث الذي حمله على قطع المفاوز الشاسعة والأودية السحيقة على ظهر دابة وفي زمن كانت الأسفار محفوفة بالمخاطر وطلقات (الموزر) تلعلع في كل سفح ورابية وها أنا ذا أخلي بينك وبين الرائد اللبناني الأول ليحدّثك بأسلوبه الكتابي الرائع عن ذلك المنزع الذي حمله على الأسفار في (قلب لبنان) هازئاً بما يكتنف رحلته من مخاطر ورفيقه فيها (المكاري) محبوب و (بغلته) ذات الأجراس المدبية ... :

« . . . وبعد التوكل إذن على الله ، وعلى الذاكرة ، أطوي من الماضي نحو ثلاثين سنة وأقف عند السنة السابعة والتسعمائة والألف (١٩٠٧) على كتف وادي الفريكة لأعرّف الى القارئ شاباً لبنانياً كان قد هاجر الى اميركا وعاد منها ، يحمل الكتب الأدبية ، لا السندات المالية ، واتخذ الوادي منسكاً له ، فبنى معبداً فيه ، أو حسب معبداً كل مشهد من

مشاهده، بل كل مكان يقف فيه القلب مبتهجاً، والفكر مستوحياً، والروح خاشعة مطمئنة...

وكان ذلك الشاب مشغوفاً بالكتب والكتابة، فانصرف بكل قواه وكل جنونه إليهما جفا الانس، إلاَّ الفلاحين منهم، وما واصل الجن، إلاَّ من كان منهم نسيباً لشاعر أو صنواً لجَّان ضحَّاك، فظلَّ على شيء من الإنسية المؤنسة، وما ادَّعى النبوَّة مرة ولا القداسة!

ولكنه رأى أن يعبد الله في المعبد الأكبر، في الفلاة، في الحقول، في الوادي، في ظلال الصنوبر والزيتون، فقال الناس إنه كافر ينكر وجود الله، وقد سمعه بعضهم يقول: «الطبيعة أمي» ويردِّدُها فقالوا: «إنه» «سيجدف على الله تعالى!»

ويقول في موضع آخر: «ثمَّ تجلَّت لذلك الشاب حقيقة أخرى جليلة وهي إنَّ جبل لبنان هو الجبل المقدَّس وإنَّ أقدس ما في الجبل المقدس هو الأرز فكيف يبني العابد معبده في الوادي ويظل ابن الطبيعة مقيماً فيه ثلاث سنوات ولا يزور أقدس مكان في لبنان لا يحج الأرز؟ هذا هو الكفر بعينه.. وقد آلى ذلك الشاب على نفسه ألاَّ يكون من الكافرين»

وكانت (رحلة الأرز) وسائر الرحلات الاربع عشرة التي قام بها (الامين) في نجود الجبل المقدس ووهاده (لوحات) فنية رسمها الريحاني الفنان بريشة الابداع وصوَّرها تصويراً رائعاً بأسلوبه السهل الممتنع الذي لا يجاريه فيه اليوم كاتب عربي. وكان من وفاء شقيقه الأستاذ البرت (أبو الأمين الثاني) ان فكَّ أغلال تلك الفصول وحزمها في كتاب أخرجه حديثاً للقارىء العربي حزماً أنيقاً موفقاً وقال له: «هاك بعض ما تركه شقيقي أمين من خمر معتقة في خوابيها، فأحسُ ما في وسعك أن تحسو ... وكلما استسغت هذه اللبنانية البابلية ترحم على أخي وادع الله أن يرزق أمتي كل جيل رجلاً من طرازه!».

وإذ نكتفي بهذه اللمحة العابرة عن الأثر الريحاني القيِّم نشكر الأستاذ (أبي الأمين) مجهوده الأدبي ونرجو أن ينشر كل عام على محبي (الأمين) والمعجبين بذوب انتاجه الادبي مما تركه مخطوطاً إذ نحسب أن كل ما ينشره الأستاذ البرت (رعاه الله) من آثار أخيه وروائعه كسباً للخزانة العربية ومغنماً لتاريخها الحافل بمآثر (الأمين).

القدس — فلسطين

البروي الملثم

فهرس الجزء الثاني

من المجلد الثاني عشر بعد المئة

٨١ التكافل الاشتراكي — نظرية ما في النظام الاجتماعي : اسماعيل مظهر

٨٧ لـكل أجل كتاب : ا . م .

٩٤ مشكلة الاسترليني : فؤاد محمد شبل

٩٧ نظرات في النفس والحياة : ع . ش .

١٠٤ التعريف بشرح التصريف المسمى بالمنصف : عبد الله أمين

١٠٨ في التربية — الأسس الحيوية للتربية : محمود حامد شوكت

١١٣ المادة والطاقة — أقنومان في واحد : نقولا الحداد

١١٧ أمراض العيون — الزهري : الدكتور عبد المسيح جرجس

١٢٤ حافظ وشوقي — صدى الحوادث عند الشاعرين : حسن كامل الصيرفي

١٣٧ مشهد من مسرحية كليوبترا : محمد فهمي

١٤٠ باب الاخبار العلمية * البروتينات المصنوعة — محاكاة العمل السحري الذي تقوم به الطبيعة لانماء الكائنات الحية : عوض جندي

١٤٩ مكتبة المقتطف * (١) شرق وغرب (٢) حديث الصومعة (٣) عاشقة الليل : حسن كامل الصيرفي . ٨٩ شهراً في المنفى : محمد فهمي . خواطر الحياة : احمد الشرباصي . قلب لبنان : البدوي الملثم .

لحق المقتطف

١ — ٥٦ الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث : بقلم مصطفى عبد اللطيف السحرتي